ألبرتو مانغويل

ستيفنسن تحت أشجار النخيل



ترجمة
جولان حاجي

رواية

ستيفنسن

تحت أشجار النخيل

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- تاريخ القراءة
- فنّ القراءة
- المكتبة في الليل
- يوميات القراءة
- مع بورخيس
- مدينة الكلمات
- الفضول
- عودة (رواية)
- عاشق مولع بالتفاصيل (رواية)
- كل الناس كاذبون (رواية)

ألبرتو مانغويل

ستيفنسن تحت أشجار النخيل

ترجمة

جولان حاجي



الطبعة الأولى 2017

ما مِنْ أحدٍ يهيمُ تحت أشجار النخيل ويفلتُ من العقاب[1].

غوته

الأنساب المختارة

---

[1] كتاب كثيرون، من نيتشه إلى صموئيل بيكيت، استخدموا هذا السطر المقتبس من رواية غوته المذكورة (اعتمدنا عنوانها كما ترجمه عبد الرحمن بدوي)، والاقتباس مأخوذ من يوميات أوتيلي، إحدى شخصيات الرواية، حين تتحدث عمّن يسافر إلى الأراضي البعيدة الغريبة، وتكمل السطر قائلة: "لأن المحتم هو أن تتغير آراؤه في بلاد هي الموطن الأصلي للفيلة والنمور" [الهوامش كافّة من وضع المترجم].

إلى كريغ، ستيفنسن الآخر[1]، مع حبّي كلّه.

---

[1] كريغ ستيفنسن، صديق ألبرتو مانغويل وشريكه. ابتداء بهذا الإهداء يلمح الكاتب إلى فكرة التماهي في لعبة الازدواجات والأقنعة التي سيكتشفها القارئ لاحقاً.

غادر روبرت لويس ستيفنسن المنزل ليتمشّى على الدرب الطويل الذي مهّدته أقدامُ المتنزّهين باتجاه الشاطئ قبل أفول النهار. من شرفته، كان البحر محتجباً بالأشجار التي تملأ واديين من وديان الغابة، على مبعدة ستمئة قدم من منزله على الرابية. وللاستمتاع بمرأى الشمس وهي تغطس أخيراً قبل أن يخيّم الظلامُ الصافي، كان خير مكان لرصدها يقع وسط جذورِ المَنْغروف[1] رغم البعوض وذباب الرمل[2] (أسرَّ لنفسه مشجّعاً). لم يلحظ الشخص من الفور لأنه لاح كمجرّد ظلٍّ آخرَ رابضٍ وسط الظلال، لولا التفاته عندئذٍ، فبدا للحظةٍ أنه يراقبه. كان الرجل يعتمر قبعة عريضة الحوافّ لا تختلف عن قبعة ستيفنسن، ولم يستطع تبيُّن ملامح الرجل، وإن استطاع أن يرى بياض بشرته.

"إنها تغرب على عجل، فتظنُّ أن المياه تخمدُ اللهيب"، قال ستيفنسن ليكسر الصمت.

"وهي تخمده فعلاً"، أجاب الرجل، من دون أن

ينهض، وسرَّ ستيفنسن أن يميّز في الصوت لهجة اسكتلندية مُبينة، كانت لأسفه تتلاشى في معظم أنحاء إدنبرة.

"لا أظننا قد التقينا من قبل"، ابتسم، متقدّماً صوب الغريب مادّاً إليه يدَ الترحاب. لم تكن الجالية البيضاء في آبيا كبيرة – ويا للحسرة! – قد تعرّف ستيفنسن، الشخصية الأشهر في ساموا[٣]، إلى جميعهم.

"بيكر"، قال الرجل. "وطبعاً، أعرف مَن أنت. أنا أتنقّل بين هذه الجزر منذ وقت طويل لا يعلمه إلا الربّ، واسمك يتردّد حتى في تونغا[٤]. أحياناً أدّعي أواصر قربى معك تعزيزاً لقضيّتي"

"وما عساها تكون؟"

"قضية الطريق الحقيقي[٥]، قضية كلِّ الأبرار. أنا رسمياً أُجري نوعاً من الإحصاء يتصل بعمل الإرسالية في هذا المحيط الذي تداركه الله. نحن – الجمعية المُرْسلية في إدنبرة – نحبّ أن نبقي أعيننا مفتوحة على هذه الأشياء"

على جذرٍ، جلسَ ستيفنسن وشخص بنظره إلى السماء.

كانت النجوم قد بزغتْ والبحرُ أبيض.

"متى غادرتَ إدنبرة؟"، سأل.

"منذ وقت طويل ما عدتُ أبالي بتذكر تاريخه، والمدينة الآن تقعُ في أقاصي مكان بعيد، إنها تكاد لا تكون موجودة" قال الرجل.

"العكس هو الصحيح بالنسبة إلي"، قال ستيفنسن. "لقد جعلها البُعد أكثر حضوراً مما كانت عليه عندما عشتُ فيها. أخلدُ إلى النوم وفي منخريَّ رطوبتُها الباردة، وأصحو وفي عينيّ دخانُ مداخنها"

"أما أنا فأراه طقساً صالحاً لتتحصّن الروح. الحرُّ هنا يُرخي عنان النزوات، يفجّر الخطيئة كالزهور من الوحل"

اغترف بيده حفنةً من الرمل المبتلّ وتركه ينسرب خلل أصابعه.

"وكم من الوقت تنوي أن تبقى في ساموا؟"، سأل ستيفنسن، ولم يكن سؤاله من باب الفضول بقدر ما هو رغبة في سماع صوت الرجل مرة أخرى.

"ريثما ينتهي عملي"، أجاب الرجل.

وفي وقت لاحق من ذلك المساء، أثناء إعداد العشاء

في الصالون الكبير للمنزل في فايليما[٦]، ذكر ستيفنسن اللقاء لزوجته التي نبهت إلى أن هناك عدداً كبيراً جداً من الاسكتلنديين الفالتين في العالم. "هذا اسكتلندي بارد النّسب"[٧]، عقّبَ ستيفنسن، مسرّاً لنفسه تقريباً، ثمّ تساءل ما الذي كان أسلافه يعنون بالضبط من تلك العبارة.

في النهار التالي، كانت هناك وليمة عيد في القرية، وحتى قبل شروق الشمس كان من الممكن سماعُ العربات وهي تصل محمَّلةً بالمؤن: أصوات الرجال وهم يغنّون والنساء اللواتي ينادين على الأطفال، والصيحاتُ الحادة للخنازير قُبيل ذبحها، وتقطيعُ الحطب، والسقوط المدوّي لشجرة جوز هند. واقفاً على الشرفة، متفرجاً على خُضرة المدى تتشرّبُ الضوء الذي ينبلج، فكّر ستيفنسن كم هي مختلفةٌ مشاغلُ الحياة هنا، تحت السماء الحارّة، عن المشاغل في المكان الذي درج على تسميته الموطن، ولا يزال، في بعض الأحيان، يشتاقُ إليه. كان يشعر أحياناً بأنه يحتاج - بالمعنى الجسدي للكلمة - إلى لسعة البرد الصقيعي والمطر الأسود، والمظهر الكالح لأحجار إدنبرة الرماديةِ، التي تشوبها مسحةٌ وردية كجثة فأر متفسّخة.

هنا تتحلّلُ الأشياء في بهاءٍ وفجور. تذكّرَ عامه الأول في ساموا والباحة المغطّاة بثمار البَبَايا[8] المتساقطة - كانت قشرتُها الصفراء اللمّاعة تسودّ فتتفتّق الثمرة عن طياتها العديدة وينفضح داخلها المكتنز الشهواني العابقُ بفَوح اللعاب - وكيف تحاشياها، هو وفاني، من دون أن يتفوّهَا بكلمة واحدة، كأنهما قد وقعا من غير قصد على مشهدٍ سرّي وماجن. ذات مرة صادف امرأة في ماخور قريب من بِربينيان[9]، جالسةً على مقعد إلى جوار الباب عند قدومه، وفخذاها متباعدتان على نحوٍ يستحيلُ تصديقه، وقد نفّره مرآها وأذهله في آن واحد، وذلك في عري أفحش من أيّ عري سبق له أن عرفه. في ساموا، عري النساء، الذي أربك المبشّرين أيما إرباك، لم يكُنْ قبيحاً أبداً. في المساء، عندما كان القرويّون يذهبون إلى البحر ليستحمّوا، فيرتمون في الموج مع الأطفال ويتناثر رشاش الماء، كانت شعور النساء الكثيفةُ السود المضفورة تتفتّح كشقائق البحر[10] في الماء، فيما زهور الخطمي[11] التي وضعنها وراء آذانهنّ تطفو حولهنّ كجُزرٍ ناريّة. كان ستيفنسن، وقوفاً على الرصيف البحري، يحبُّ التفرج

عليهنّ وبشرتهنّ السوداء تتلألأ قاسيةً كأحجار بركانية.

هنا في ساموا، كلُّ ما تحفَّظ عليه، ووشوشه وصانه بالكتمان في صومعة عالم طفولته، مكشوفٌ على الملأ - متباهياً ومن دون تستُّر - وقد اكتسح ذلك حواسّه في البداية وخنقه، كما ضايق فاني وجعلها متبرّمة وغضوبة. ولكنهما مكثا، وقد فتنَتْهما بمرور السنين المجاهرةُ بكل ذلك، وباتا يألفان انعدام التحفُّظات. ولئن حافظا في البيت، في فايليما، على أصول اللياقة الجديرة بجنتلمان اسكتلندي وزوجته الأميركية وأسرتهما (ابن وابنة زوجته الكبيرين، وأمه المعمّرة)، فقد صارا يستمتعان الآن بعربدة الأصوات والألوان في الخارج، وبمرأى العالم الذي يبدو أنه يتفتّح من دون انقطاع مثل زهرة مُسكرةِ العطر.

بعد الفطور، كانت فاني تجلس في الصالون الكبير تراجع الحسابات، وهو يحاول أن يقرأ الجرائد اللندنية. كان، كالمعتاد، مريضاً خلال الليل، وكان يحسّ الآن بأن رأسه راغبةٌ عن أي عمل. وكمَن يسترجع ذكرى مبهمة، كان يقرأ أسماء كانت مألوفة لديه في ما مضى لكنه لم يستطع تمييزها تماماً. وفكّر، على منوال ما كان يفكّر به

غالباً خلال هذه الأيام، مستغرباً كيف أن المكان الذي عرفه جيداً ذات يوم قد نحّته نهائياً مثلُ هذه الجغرافيا التي لم تكن تخطر على بال، وكأن الأحاسيس التي يتذكرها عن مكانه الأول تمازجها وتنتهكها أحاسيسُ المكان الآخر. باهتمام عالم أنثروبولوجيا متلهّف، قرأ عن النمائم والأقاويل في جزيرة بريطانيا البعيدة، وكان يسلّيه أن يتخيّل أصدقاءه يفعلون الشيء نفسه ما داموا قد صوّروا "ر. ل. س القديم وسط همَج ساموا"[١٢]

حوالى الساعة الحادية عشرة، دخل سوسيمو، الخَوليّ، ليقول إن العربة جاهزة. صعدت العائلة بأكملها - ستيفنسن، فاني، السيدة توماس ستيفنسن العجوز، طفلا فاني: بيل سترونغ ولويد أوسبورن - فضرب سوسيمو البغلَ بالسوط ليغذّ السير.

كانت القرية قد زُيِّنت بسَعَف النخيل وحبالٍ من الأزهار. كان الطبّالون، أمام أغطية التابا[١٣] الممدودة للتو، متوّجين بأكاليل ذات طبقات ثلاث من زهور التيارِيه[١٤]، ويتمرّنون ورغبتهم في المرح أوضح من استعراض مهاراتهم، وبضع فتيات أصغر سناً يقهقهن

مؤرجِحاتٍ أوراكهنّ على إيقاع الطبول. أتى اثنان أو ثلاثة من الوجهاء لاستقبال آل ستيفنسن، وأعانوا السيدتين على النزول من العربة. السيدة توماس ستيفنسن، قابضةً على مظلتها الشمسية السوداء، قفزتْ إلى الأرض برشاقةٍ مفاجئة، وصحبها جمْعٌ من نساء يكبرنها سنّاً ابتعدن بها بادئاتٍ من الفور سيلَ النميمة والضحك. عرض لويد أوسبورن المساعدة في حمل الحُصُر التي كان سوسيمو يُنزل حمولتها من العربة، في حين أن ستيفنسن، محمياً بقبعته عريضة الحوافّ، وفاني وبيل اللتين تستفيئان كلٌّ بمظلتها الشمسية البيضاء الصغيرة، أرشِدوا إلى الدائرة القريبة من التنانير المحفورة في الأرض[١٥] تفرّجوا لبعض الوقت على اللحوم وحُزم الطعام كيف تنزل لتحطّ على الأحجار الحامية، وذلك كلُّه في قلب سحبٍ عظيمة من الدخان، ثم غُطّيت التنانير بالسعَف الخضر للنخل ودعاهم الزعيم إلى الجلوس. جُلبت الكراسي لفاني وبيل، أما ستيفنسن، فجلس على الأرض مع باقي الرجال مصالباً ساقيه.

كان الناس يروحون ويأتون، والأطفال يتراكضون،

والكلاب الهزيلة تتشمّم كلَّ الزوايا إلى أن يزجرها أحدهم بالركلات، ودجاجة غريبة عبرت الدائرةَ الرئيسية بخطى سريعة مختلّة كأنها ترفرف ولا تطير. لم يستسغْ ستيفنسن أبداً ما كانت مربّية طفولته تدعوه، بلكنتها الشمالية الثقيلة[16]، "الإسراف الشعبي": هيجان الحشود، القوية والعصية على التكهّن مثل حريق. وسط جَمع كبير من الناس، الفرِحين أو الغاضبين، المفجوعين أو المتعطّشين إلى اللهو والقصف، كان يشعر بأنه عُرْيان، وغالباً حاول التغلب على ذلك الشعور الذي سمّاه الحياء، لرغبته في كلمةٍ أدقّ، فيما وصم أبوه ذلك الشعور ذات مرة بأنه الجُبن، وهي تهمةٌ لم ينسَها. والآن، بدأ حشدٌ، أو ما شابهه، يلتمُّ حولهم، وأرغم ستيفنسن نفسه على الشعور بالراحة، أو الظهور كمَن يشعر بالراحة. ثم بدأت الموسيقا بجديّة.

عندما وصلوا إلى ساموا للمرة الأولى، تساءل ستيفنسن هل كانت العادات الغريبة للمكان الأجنبي ستزعج أمّه. كان قد قرأ عن تلك العادات وتطلّع إلى أن يراها متجسّدة في لحمٍ ودم، وظنَّ أن فاني، بوصفها قارئة مخلصة

لوولت ويتمان رغم طهرانيتها الأميركية، ستكون قادرة بلا شكّ على التنعُّم بتجلّي العافية في جسد الإنسان، مسربَلاً بالشمس لا بالريح والمطر. ما كان يقلقه هو ردّة فعل أمه حيال اللحم الأسود العاري والحركات الراقصة المتمايلة، الأسنان الناصعة البياض والشعر الفاحم السواد أمام السيدة البسيطة القادمة من إدنبرة، المعتادة الأجسادَ الرافلة في أثواب الحرير الأسود الباهظ الموشّاة بالدانتيلا. أولاً في هاواي، ثم في تاهيتي، حيث لوجه الإنسان قسماتُ النحول والشعر سبْطٌ وطويل، ولاحقاً في هذه الجزر حيث تزداد القسمات اكتنازاً وتزداد البشرة دكنةً ويتجعّد الشعر في تيجان ملبَّدة الضفائر، بدا على السيدة توماس ستيفنسن أنها تغتبط بالتنوُّع على أرض الله وتتلذّذ بتعدُّد صورته. قارنت الوجوهَ التاهيتية بالزنابق الذهبية، ووجوهَ ساموا بالورود الغامقة كالحبر، ولمستِ الترحاب في كل مكان. كان ستيفنسن يراقبها الآن مسرورة في جلوسها وسط العقائل الكريمات السامويات، وفستانها الرمادي المخضرّ وبياض وجهها ويديها وشعرها هي الانعكاسُ الظلّي[١٧] لبشرتهنّ السوداء وبياضِ فساتين

المومو التي يرتدينها[18]

كانت الطبول تُقرع بإيقاع متواصل راحت وتيرته تتصاعد في براعة وانتظام، ورتلٌ من الرجال، على وجناتهم لطخاتٌ من الصباغ وأكاليل خُضر حول رؤوسهم، بدؤوا يرقصون في خط مستقيم، فيما ترافق النساء موسيقاهم مغنّياتٍ في جوقة تحمّسهم، ثم حان دور النساء، فرفعن أذرعهنّ وتمايلن بحركاتٍ كالأمواج، جنباً إلى جنب، في اتّساقٍ بديع. والآن انضمّت إليهنّ مراهقات بعضهنّ أكثر ارتباكاً أو أكثر حياء من الأخريات، وبغتة رأى ستيفنسن فتاةً خارقةَ الجمال، تتنقّل بكامل الثقة على إيقاع الموسيقا.

لا بد أن عمرها كان ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً، وقد أزاحت شعرها الكثّ عن جبينها بخيطٍ من زهور التيارِيه، فارتخى موج شعرها الأسود على كاهليها الرقيقين، ووراء أذنها زهرة خطمي حمراء كبيرة في أوج تفتُّحها. كان نهداها الصغيران مرئيين تحت شريطٍ من قماش ملوَّن (وُضع نزولاً عند رغبة البعثة التبشيرية الزائرة)، وأثناء تمايلها كانت تنّورتها القشّ المزيّنةُ بالأصداف والخرز

تكشف عن ساقيها الرشيقتين الطويلتين. أحبَّ ستيفنسن عينيها، وإذ كان يراقبها، لمحتْ نظرته، فابتسمتْ. مُحرَجاً، ومتفاجئاً بَحرجه، أشاح ستيفنسن برأسه. وعندما نظر من جديد، كانت قد اختفت وراء الطبّالين مع العديد من الفتيات الأخريات. تغيّر الإيقاع. بدأ رجل ضخم بالرقص وحده في مركز الدائرة.

طوال ما تبقى من النهار، كان ستيفنسن، في لحظاتٍ لا يتوقّعها، يلمحُ الفتاة فتضيع منه. كان يبحث عنها أثناء الخطاب الطويل للزعيم، وبعد ذلك عند جلوسهم ليشربوا الكافا[١٩] ويأكلوا لحم الخنزير وجذور القُلْقاس[٢٠]، ولكنه لم يرَها، ثم ظهرتْ فجأة وهي تحمل طبقاً من ثمار الخبز المشوية[٢١]، وفيما بعد، بين النساء الأكبر عمراً، رآها تمشّط شعر امرأة، ثم رآها للحظةٍ تضحك مع اثنتين من رفيقاتها في ظل شجرةِ لهب[٢٢]. وفي مرة أخرى، تلفّتَ فرآها تراقبه، ولما استدار، هربتْ.

منذ سنوات بعيدة، في فرنسا، رأى فتاة بالعمر نفسه في أغلب الظن وهي تستحمّ وراء ستارة مهلهلة في فناء مزرعة، فأحس باضطرام هذه الرغبة التي تذكّرها الآن.

كان القديس أوغسطين، على ما يعتقد، قد شكر الله لأنه لم يجعله مسؤولاً عن أحلامه. ارتشف جرعة طويلة من الكافا ورتّل صلاة الشكر نفسها.

بدأ السعال، كما كان يحدث غالباً، من دون سابق إنذار، استهلّته أولاً نحنحةٌ في مؤخرة حلقه، ثم انطلق كسَعلاتٍ جافّة ممزّقة بدتْ من دون نهاية. تخضخض بدنهُ كلُّه، واخترق الألم صدغيه وأسفل قفصه الصدريّ. لفّته فاني بذراعها، لكنه نهاها وهو يرتجّ محاولاً الوقوفَ على قدميه، مدركاً أن القرويين يتفرّجون عليه. جاءه لويد أوسبورن ليبتعد به مصطحباً إياه إلى العربة التي تنتظر، ولكن قبل وصولهما إليها، اشتدّ السعال على نحو عنيف جداً، فبدأ يرتجف. وللحظةٍ طالت، أحسَّ بركبتيه تخوران، وقُبيل أن يفقد الوعي، رأى في المنديل الذي أمسك به أمام فمه بقعةً كبيرة قانية قرمزيةً كالزهرة التي وضعتْها الفتاة في شعرها.

في الصباح، استفاق شاعراً بتحسُّنٍ غريب في حالته لم يحظَ بمثله منذ وقت طويل، لكأن السعال المضعضع قد مرّ كعاصفة ليتركه وقد تجدّدت قواه تقريباً، من دون

حتى زلّة تنفُّسه المعهودة. أرادت فاني منه ملازمةَ الفراش ولكنه لم يُطِقْ بقاءً. أحسَّ بطاقةٍ من اللذّة تُفعمه، وبعد الفطور، جلس ليكتب فصلاً جديداً من الرومانس[٢٣] الاسكتلندية السوداء التي كان يؤلّفها. كانت إيماءاته كلُّها مأخوذةً بإلحاحٍ حيَّرهُ وأمتعه. كان متلهفاً إلى أن يبدأ. جلس، ثم سوّى الصفَّ القصير من الكتب على منضدته، واستلَّ أوراقاً عدة من تحت النشّافة[٢٤] وغمسَ في الحبر قلمَه.

ورغم كتابة لويد أو بيل ما يُمليه عادة بسبب عُقال الكاتب[٢٥] الذي انضاف الآن إلى قائمة أوجاعه القديمة، فقد آثرَ أن يمسك بالقلم بنفسه، كلما تسنّى له ذلك، ليرى القصة - بالمعنى الحرفي للكلمة - تتدفّق على الورقة. واليوم، كأن معجزة حدثتْ، جميلةً انسابتِ الكتابة: في الضياء القويّ لشمس الجنوب، وبيُسْرٍ بالغٍ، تصوّرَ مطرَ اسكتلندا وريحها، ولغةَ أسلافه الدقيقةَ الثرية. كان قد نوّه بملاحظة لهنري جيمس، ألا وهي أن ما يتمنّى فعله هو تجويع حاسّة البصر حتى إماتتها في كتبه[٢٦]. كان يسمع الناس يتحدّثون، ويشعر بهم يؤدُّون أفعالهم، وكان ذلك

بالنسبة إليه تعريف الرواية. كتب ملاحظة عن غايتيه الأدبيّتين:

- الأولى هي الحرب على النعوت.
- الثانية هي الموت للعصب البصري.

الآن، كان يرى بطله الوغد يعبر القفار العاصفة مفعماً بالشغف، ويسمعه يبرّر نفسه أمام الربّ إله الجنود[27] بجُمَلٍ تهدرُ وتدوّي كالرعد. الفتاة في وليمة العيد خلعت ابتسامتها على شخصية المرأة الشابة في رومانسه، وأسرَّ ستيفنسن لنفسه أن هذا استيلاء لا يجوز: "خطيئة تغتفَر"، قال لنفسه، وكلُّه امتنان.

قصة الخطأ والصواب استأثرت بانتباهه إذ انحلّت خيوطها أمام عينه الباطنية، وأحسّ بالرضا لوضوح بساطتها. كتب حتى انتصاف النهار ثم توقّف. كان الطقس حاراً جداً فلم يستطع التمشّي إلى الشاطئ مرة أخرى، فخرج إلى الحديقة يتجوّل في أرجائها ليرخي عضلاته التي تشنّجت.

كان سوسيمو يلملم ثمار الخبز المتساقطة، فسأله ستيفنسن هل رأى المبشّر الجديد في ذلك الصباح.

فأجابه سوسيمو: "ما مِن مبشّر جديد في فايليما. أساساً هناك الكثير منهم في آبيا"

* * *

ما عاد يفكّر في الفتاة. عوضاً عن التفكير فيها، وفي غضون الأيام القليلة التالية، بحث ستيفنسن عن رفيقه الغامض ابن بلده، مدفوعاً بالحنين إلى التلمُّظ بلهجة إدنبرة وبحاجةٍ طفولية إلى معرفة أن كل شيء على ما يُرام. كان يسمع نبرات المبشّر تسم إيقاع جُمَله أثناء إملائه الفصولَ التالية على بيل. سأل سوسيمو مرتين أخريين وتلقّى الجواب نفسه، فذهب في الأمسيات إلى الشاطئ حيث التقى السيد بيكر للمرة الأولى. تساءل: تراه مع مَن يسكن، وكيف أمكنه أن يتفادى خوليّه [سوسيمو] بأذنيه المستنفَرتين وعينيه اللتين ترصدان الشاردة والواردة. وبعد أسبوع، عندما كان ستيفنسن قد استخلص أن المبشّر قد انتقل إلى جزيرة أخرى من غير بدّ، التقى الرجلان مرة أخرى في الموضع نفسه على الشاطئ.

"يا لهذا السطوع السامّ"، قال السيد بيكر، واقياً عينيه

من الشمس. "السطوع الحارق للجحيم"

ضحك ستيفنسن وسأله أين يقيم. لم يُجبِ السيد بيكر جواباً مباشراً.

"كنتُ مشغولاً على الطرف الآخر من آبيا. ليس من السهل جمع معلومات إحصاء كهذا"

"هل تكتفي بتسجيل الأسماء؟"

"أوه، لا. الأسماء هي أقلُّ ما يُقال. ما يهمني هو الفعاليات. أي ضربٍ من العمل يوكل به الشيطان إلى الأيدي الكسولة. سُدى أبحث عمّن يعملون بالكلمة، ولا يكتفون بالاستماع إليها فحسب[٢٨]. وهذا المكان يورث الخمول"

"ولكنك مرتاح في مَسكنك؟"

"مرتاح بما فيه الكفاية. لا أرى مضيفي ولا يراني أبداً، ولذلك نحن متفاهمان بصورة رائعة. ليس رجلاً مثقّفاً، ولكن لديه بعض كتبك في منزله"

"أفكر أحياناً أن ناشري يُهدي النسخ ليدفعني إلى الشعور بأنني مهمّ"

"لم أقرأها قط ولن أقرأها أبداً. ليس عندي وقت

لسفاسف الروايات. قصص مختلَقة، فعلاً! إنها أكاذيب، واغفرْ لي قوليَ هذا. حريٌّ بمقامنا القصير على هذه الأرض أن يكون وقتاً للإصلاح والتعلُّم، لا للتبذير والتوهّمات. هناك كتاب واحد فقط، يا سيدي، أُوليه كلَّ انتباهي، وهو لا يهرِف بالقصص الخرافية"

شعر ستيفنسن بأنه متَّهم. "كلُّ ما أرمي إليه من وراء حكاياتي هو تقديم العون عبر قليلٍ من المتعة، قليل من السعادة. ذلك واجبنا أيضاً، أليس كذلك؟"

"السعادة؟" قهقه الرجل. "السعادة ثوابٌ وليست حقّاً من الحقوق. هل رأيتَ أي وسخ يُلقي به السكّان الأصليّون هنا على الشاطئ، في وقت متأخر من الليل، في هذا الفردوس المزعوم؟". تهدّج صوتُه. "لقد رأيتُ حتى رجالاً بِيضاً، أوروبيين..."، توقّف فجأة. "كلا، سيدي. أنا لا أؤمن بواجب السعادة"

استيقظ على ألم ساخن ممضّ في مفاصل يده اليمنى، ولكن الفكرة التي راودته خلال الليل ما كانت ستحتمل إملاءً على أحد. شكر ابنةَ زوجته، وأخبرها أنه سيؤدي بعض العمل وحده في ذلك الصباح وجلس إلى منضدته.

كان يشعر بأنه محموم وأصابعه ترتجف ارتجافاً خفيفاً، ولكنه من باب تأدية الواجب، غمس قلمه في الحبر وبدأ يكتب. كان يعلم أن القصة قد انقطعت لتسلك طريقاً جانبياً لم يكن بالحسبان. أتتِ القصةُ أعنفَ وأقتمَ سواداً كأنها سوف تنبش في إثرها أشياء مشينة قذرة. توقف للحظة، بسبب الألم من جهة، وبسبب الرعب الذي بثّته فيه القصة من جهة أخرى، لكنه واصل العمل بعدئذ، مدفوعاً بحاجةٍ أقوى. استغرق في الكتابة، وكاد خطُّ يده يكون غير مقروء في هذه الآونة بسبب الرجفان. سوّد عشرين صفحة من دون محو حرف واحد. توقف عندما سمع صوت زوجته وراء الباب. كان وجهه يتصبّب عرقاً.

أخبر فاني أنه لن يتناول الغداء، وسوف يذهب ليستلقي ويرى هل سينقضي الألم، ثم أخبرها أنه قد كتب شيئاً مختلفاً للغاية، فهل ستتلطّف بإلقاء نظرة عليه. لقد أمسَتْ تلك عادة بينهما: هي كانت تقرأ على الدوام كلَّ شيء يكتبه، والقصة تبقى أو تُلغى تبعاً لموافقتها. أقلقها احتقانُ وجهه وتنفُّسه الشاقّ، ولكنه صدَّ محاولتها أن تساعده على الذهاب إلى غرفة النوم. كانت تعرف أنه يكره

مجاملات القلق عليه، فتركته يذهب.

أتى النوم، وما أبعده عن الإتيان بأي راحة. ما هبّت نسمة عبر ستائر الخيزران، وحتى النور المتشعّع خلالها كان ساخناً ومليئاً بالغبار، واخزاً عينيه المغلقتين، فحلم بأنه قد دُفِن حياً في فُرن ضخم. أيقظه صريرُ الجداجد الذي يصمُّ الآذان ليجد نفسه ملتفعاً بالشرشف البليل. وكما في بداية قدومه، اشتاق مرة أخرى إلى إدنبرة. ولمّا كان يسكب الماء في حوض المغسلة، رأى وجهه في المرآة بادي الاحمرار كأن الشمس قد أحرقته.

نزل إلى الطابق السفلي. كانت فاني جالسة على المقعد المكسو بالجلد والمخطوطُ في حجرها.

"ما رأيك؟"، سألها.

لبثتْ للحظة لكي تجيب. ثم تكلمت: "هذا شيء فظيع. إنها فظاظة. بل إنها جلافة. سوداء كانت القصةُ التي كنتَ تكتبها ولكنها قوية، موشكة أن تصير تحفة. أما هذه... فأردأ من تشويق صحافي رخيص. ولا تناسب الروايات إطلاقاً"

"لا تناسب الروايات؟"

"بل تمنيتُ عليك لو لم تسمح لنفسك حتى مجرد الحلم بمثل هذه الأشياء. هذا سُمّ"

كان ساخطاً. أحسّ بوجنتيه تتوهّجان حنقاً فتخطّف الأوراق من بين يديها دون التفوُّه بكلمة أخرى. اندفع عاصفاً في خروجه من الغرفة. لم يسبقْ قط أن انتابته مثل هذه المشاعر المحتدمة ومثل هذه النقمة. نظرَ إلى ما كتبه في ذلك الصباح فبدتِ الكلمات كأنها قد اكتسبتْ حياة تخصُّها وحدها، تسعى كالثعابين عبر الصفحة المكتوبة بخطٍّ يد لم يتعرّفْ إليه.

قرأ بضع لحظات كمَن غشيه النعاس، ثم صعد متوجهاً إلى الموقد فرمى المخطوط على أحجاره وأشعل عود ثقاب. شاهد الورق يطقطق ويحمرّ ثم يسودّ. وعندما لم يبقَ شيء إلا رمادٌ خبَتْ جذوته، عاد أدراجه هابطاً إلى الطابق السفلي. لم تكن فاني قد تحرّكت. تقرّب منها، جثا إلى جوارها ووضع رأسه في حضنها.

"أنتِ على حق. لقد ضيّعتُ قطعاً فحوى القصّة. لقد ضللتُ، لا أعرف كيف. هل ستسامحينني؟"

مشّطتْ بأصابعها شعرَه. لم يذكرا، لا هو ولا فاني،

تلك الأوراق مرة أخرى أبداً[٢٩].

"لقد كتبتُ حكاياتٍ للعِبرة[٣٠]"، قال ستيفنسن للسيد بيكر في المرة التالية التي التقيا فيها.

كان جَمْعٌ من ضباط البحرية قد أتوا ليعربوا عن احترامهم له في فايليما، فهرب سيد البيت طلباً لقليلٍ من السكينة الحميمة قبل العشاء، تاركاً لفاني وابنها وابنتها وفادةَ الضيوف. لقد صادف السيد بيكر مرة أخرى بالقرب من أشجار المَنْغروف، وكان جلياً أنه يتفرج على سرطانَي بحرٍ يتعاركان ويشقّان بالقتال طريقهما عبر الرمل.

"أعتقد أن بمقدورك التعلُّم عبر القصص على نحوٍ أحسن يكاد يضاهي التعلّم عبر المواعظ. القصص تعطيك أكثر لتعمل تفكيرك، لأنها مواربة"

"بالضبط: الموارَبة هي الطريق العريض الملتوي. وبالتأكيد لستُ بحاجة إلى تذكير الضليع بجون نوكس[٣١] إلى أين سيفضي مثل هذا الطريق. هناك حكاية واحدة فقط بحاجة إلى أن تُروى، وتلك الحكاية لا تستلزمُ إعادة كتابتها مراراً"

توارى القمر خلف بضع سُحُب، فلم يبقَ في الظلام

إلا صوت إدنبرة العميق. وعندما بزغ القمر من جديد، كان أحد السرطانين الفضّيين فقط يعدو متعثّراً على الرمل باتجاه المدّ المقبِل.

استمرَّ الصوت قائلاً: "هل تعرف جزيرة سالاماندر [السمندل] غير البعيدة عن سواحل غينيا الجديدة؟ كنتُ هناك منذ ثلاث أو ربما أربع سنوات. سيّان. السكان الأصليّون همَج إلى حد قد ترغب فيه، أو قد لا ترغب، في لقائهم، ويتكلمون لساناً مذهلٌ اختلافُه عن أي لسان آخر منطوق على الأرض. استقرّ مبشّر هناك قبل وصولي ببضع سنين، عازماً على المضيّ بكلمة الله إلى هؤلاء الناس البهائم. استغرقه تعلُّمُ لغتهم شهوراً عدة، ولما أجادها شرع يترجم إلى زعيقهم وصيحات هَرْجِهم رسالة **بولس الرسول إلى أهل أفسس**، وفيها، كما تتذكّر، يستعطفُ الرسولُ الوثنيين ليتبعوا الرب، لا بخدمة العين كمن يُرضي الناس[٣٢]، بل كخدمٍ للمسيح. جاهداً ليلَ نهار، أمضى هذا الرجل عدة سنوات في ترجمة الكلمات المقدسة إلى لسان أهل سالاماندر. لكنّ طرُقَ الجسد – ولا حاجة بي إلى تذكيرك – سقيمة، وأولئك الذين لم يشعروا بالمسامير

والأشواك توغل في لحمهم عديمو الحيلة أمام شرور هذا العالم. تهاوى السكان الأصليّون واحداً إثر الآخر ضحايا مرض بسيط هو شكل خفيف من الجدري كانت عدواه قد أصابت رجُل الله[٣٣] قبل رحلته، ولما وصلتُ إلى الجزيرة، لم يكن قد تبقّى إلا حفنة من نساء ورجال ضعاف وهزالى أتوا لاستقبالي. وبعد بضعة أسابيع، عندما أتمّ المبشر مسعاه القيّم وسُطّرت الكلمةُ الأخيرة من رسالة بولس الرسول في ذلك اللسان البدائي، كان الشخص الوحيد المتبقي من السكان الأصليّين لسالاماندر قد انزوى في كوخه ولم يظهر مرة أخرى أبداً. لقد دُفن مع أقرانه الذين سبقوه في الذهاب إلى مكانٍ سمّوه، بطريقةٍ عمياء، البحر وراء البحر[٣٤]. لقد أتمَّ مبشّري الشجاعُ عملَه، أي ترجمة كلمة بولس الرسول إلى لسان ما عاد أحدٌ يتكلّم به في الوقت الحالي، باستثنائه. ربما ستقول إن هذا شيءٌ مهمّ؟ كلا، على الإطلاق: ذلك ليس إلا برهاناً على أن الكلمة [يسوع] أبقى من الجسد على الدوام"

"لكننا بحاجةٍ إلى القصص لتعلّمنا عبر ضرب الأمثلة، أليس كذلك؟"

"أمثلة عن ماذا؟ كان والدك مهندساً، على ما أعتقد. فما الذي كانت تمثّله، بالنسبة إليه، غنائم آيفانهو[٣٥] أو ترّهات دون كيخوته؟ كانت الوقائع والأجسام هي ما يبني عليه، وهذا ما يتوجّب عليّ أيضاً[٣٦]: تشييد مناراتٍ عالية لترشدنا، بعيداً عن صخور الخداع"

"السكان الأصليّون يحبّون القصص. فهي تاريخهم كما ترى. إنهم يستمعون إلى قصصي، أحياناً. ينادونني توسيتالا، أي راوي الحكايات"

ثم أردف: "في هذا الجزء من العالم، تصبح القصص التي ترويها جزءاً من الواقع. هل تعرف ماذا أقصد؟ لقد كتبتُ ذات مرة قصة عن زجاجة سحرية للأمنيات[٣٧]. حسناً، وبعد أن قرأتُها لجماعةٍ من القرية ذات ليلة، طالبوا بأن يروا الزجاجة. ولا يزالون يطالبون من حينٍ إلى آخر. يظنّون أنها بحوزتي. يحسبونها حقيقية لأنها ظهرت في قصة. سيكون أي شيء آخر في أنظارهم كذباً"

"خرافة، هذا كلّ ما في الأمر. ستُحسن صنعاً لو قرأتَ لهم من الكتاب المقدّس. إنه الحقيقة الوحيدة. والآن، اعذرني إذا سمحت لي"

شاهده ستيفنسن ينهض ويختفي بين أشجار المَنْغروف التي بدت في مياه المدّ العالية مثل حيواناتٍ عديدات الأقدام عند ورودِ الماء.

* * *

سُمِع لغط أصوات في الخارج ثم صوت سوسيمو يناديه. قال لفاني إنه ذاهب ليتحرّى ما يجري، فارتدى مِبْذله الطويل ونزل إلى الطابق السفلي. كان هناك جَمع من الرجال المحليين يتجادلون في الصالون الأمامي، وكان سوسيمو يحاول تهدئتهم على ما يبدو. استطاع أن يرى، عبر الباب المفتوح، عدداً من النساء الضخمات متّشحاتٍ بأبيض الحداد، في نُواحٍ خافت.

"سيدي، هؤلاء الرجال يريدون أن يروك. لقد وقع شيء سيئ. فايرا، ابنة تُوتاي"، قال سوسيمو وأشار إلى رجل ضخم ذي كرش هائل، "قُتلَت الليلة الفائتة"

بغتة تعرف ستيفنسن إلى الرجل، فقد كان واحداً من الطبّالين في وليمة العيد. كان يبدو مختلفاً الآن من دون تاج الزهور ومع قميص أبيض كبير مزرَّر فوق بطنه.

"كيف؟ أين؟ هل أعلمتُم كبير القضاة؟"

"لقد أعلموه، وهو يستجوب في القرية. لكن توتاي يرغب في التحدث إليك"

"تعال، تعال معنا"، قال توتاي.

"آتي إلى أين؟"

"إنه يظنك قادراً على المساعدة، سيدي. يظنّ أنك قد تعرف السبب إذا رأيتَ مكانَ الجريمة"

تردّد ستيفنسن، ثم أجاب: "سآتي. أمهلوني دقيقة"

صعد إلى الطابق العلوي، وأخبر فاني بما حدث، ثم ارتدى ملابسه، وتناول على عجل فنجاناً من القهوة السوداء ليلتحقَ بالرجال أمام الباب.

كان الدرب يفضي عبر بستان من شجر البَبَايا إلى عراء الحقول ويصعد إلى سفح الجبل وراءها. كان المرتقى صعباً بسبب الحشرات والحرّ، ولكنه استمتع بإجهاد عضلاته. كانت فروة رأسه تنضحُ عرقاً ومسح بمنديله شَعرَه ليجفّفه. أخبره أحدهم بإعجاب أنه قد كدَّ بما لا يكدُّه رجل ينعمُ بعافيةٍ تفوق عافيته مرّتين، وكان يعلم أن ذلك صحيح.

في ليالي طفولته الطوال، عندما كان يجلس في سريره، لاهثَ الأنفاس وسعالٌ أجوف يرجُّه، ومربّيته إلى جواره، منتظراً أن تَفرغ ما كانوا يدعونها ساحرة الليل[٣٨] من عملها الشبحيّ المرعب وتنصرف، كان يردّد لنفسه أنه إذا ما تحلّى ذات يوم بالقوة الكافية، فلسوف يستخدمها ليمضي بجسده إلى تخوم أي مغامرة ممكنة؛ يركب البحر أو طرق البرّ، منطلقاً مثل يوليسيس جديد على أمل لقاءات غريبة، ولكنه قبل أي شيء سيسافر من أجل متعة الرحلة بحد ذاتها. كان قد تخيّل فراشَ مرضه زورقاً تُعِينه مربّيته على ركوبه كلَّ ليلة، ثم عندما تنطفئ الأنوار، يمخر عباب العتمة الزرقاء متنفّساً من دون مشقّات. وبهذا الأمل، كان ينتظر الصباح.

والآن، فوق ذروات الشجر، كان بمستطاعه أن يتبيّن البحرَ الساخن في الأسفل والشريطَ الضيق للشاطئ الرمادي. صعدوا أكثر، فكان الهواء هنا أرقَّ وأبرد. أخيراً وصلوا إلى بقايا كوخ قريب من الحجارة الكبيرة الجرداء حيث كان ممكناً في ما مضى أن تُرى على سطوحها نقوشٌ[٣٩] اضمحلّت الآن.

كان جثمان الفتاة قد رُفِع من هناك، ولكن كان العشبُ الموطوء والأرضُ المضرّجة يفشيان القصة.

"هل تستطيع أن ترى شيئاً، توسيتالا؟"، سأل توتاي.

"هل هناك أي شيء يُروى؟"

نظر ستيفنسن إلى الرجل المترقّب وهزّ رأسه.

"لا أستطيع أن أروي شيئاً، توتاي. لا أستطيع أن أروي ما حدث. على أي حال، كُن على ثقة. أنا متأكد من أن كبير القضاة سيُعِينكم"

جلس توتاي القرفصاء.

"وأنا متأكد من أنه لن يُعِيننا. لا يعرف كبير القضاة أي قصص"

ظلّوا على قمة التل برهة طويلة، وتوتاي وباقي الرجال ينتظرون أن يبدأ ستيفنسن القصة. أخيراً نهض سوسيمو واستهلّ الهبوط البطيء عبر الدرب نفسه، فتبعه الآخرون.

* * *

طوال عصر ذلك اليوم وفي اليوم التالي، كان ستيفنسن يشعر كأن رئتيه ستنفجران. جلس أولاً على الشرفة آملاً

أن يعود عليه ذاك السكون المطبق بالراحة، ثم سأل فاني أن تساعده مع المنْشقة الأميركية[٤٠]. ذرذرت المساحيق في الماء المغليّ ثم وضعت فوقه الجهاز الغريب التصميم وحاولت ممازحته، جرياً على عادتهما، بنكتةٍ حول هارون الرشيد ونارجيلته السحرية[٤١]. ولكن المساحيق في هذه المرة قد فاقمتِ السعال على ما يبدو، ولم تلبث أن لمعت بقعٌ حمراء مرة أخرى على المنديل الذي وضعه أمام فمه. رفعته فاني من تحت ذراعيه وساعدته على الذهاب إلى السرير. مرة أخرى، أسرَّ لنفسه بملاحظته كم كانت قوية مثل رجل، وأسرّ، من دون أن يضمر سوءاً، كيف بدأ تقدُّمها في العمر يَلُوح في الغضون العميقة على وجهها. رزح وجه الفتاة في وليمة العيد بطيفه على وجه فاني، ثم على الجسد المسجّى لابنة توتاي، فأغمض عينيه بإحكام دونَ هذه الرؤيا.

متكئاً إلى المخدات، المنديل المجعَّد في يده والمبصقة في متناوله، استسلم للغرق في نوم محموم أثناءه كان سفح الجبل اللافح وأجسادُ النساء وأشجارُ اللهب المتمايلة وقطراتُ الدم تتمازج في حلمه كأنه جغرافيا الهذيان.

ولما استيقظ، كان الليل قد خيّم. كانت فاني جالسة إلى جوار سريره، تقرأ تحت ضوء مصباح النفط الطويل الذي اشترياه في هاواي. رمق وجهها الواجم، الفمَ الصارم الذي كان يعرفه جيداً، اليدين الخشنتين اللتين كدحتا في العمل، ففكّر كم أن كل شيء في هذا المكان قد أضحى الآن مألوفاً على نحوٍ بغيض: الكرسيُّ الذي كانت تجلس عليه آتٍ من دارةِ أبويه في إدنبرة، ومحفورة بورتريه رايبرن كانت هدية من أندرو لانغ[٤٢]، وأغطية السرير خيّطتها صديقةٌ من صديقات أمه، والخزانة التي قيل أنها تعود إلى مجرم شهير في إدنبرة وحاكَتْ مربّيته حولها الكثير من الحكايات العجيبة[٤٣]. حتى الكتاب الذي كانت زوجته تقرؤه، قصص باربِه دوريفيلي *Les Diaboliques* [الشيطانيات][٤٤]، كان قد أرسله إليه محرر مجلة سكريبنرز[٤٥] قبل عامين مديدين.

كان موت الطفلة على الجبل شنيعاً، ولم يُطقِ التفكير فيه. سأل نفسه كالمذنب: أين نضارة العافية، أين المتعة الطيبة التي أفعمتْ أيامه في ما مضى؟ متى سيعثرُ من جديد في الوحل والعرَق على الإثارة التي لا يجدها الآن إلا في

مخيلته، وفي القصص التي كان يرويها لنفسه وكان يحاول أحياناً أن يرويها على الورق؟ المادة الحقيقية أمستِ الآن أشتاتَ ذكريات: عصر ذلك اليوم البعيد، في جبال السِّفِن، عندما صادف الغربيين الإبليسين في نوتردام دي نيج [سيدة الثلوج][٤٦]، أو تلك المرة الأخرى عندما تَحاورَ لساعات عدة مع المرأة الممسوسة الضخمة في مستعمرة الأب داميان للمجذومين بالقرب من هونولولو[٤٧]، أو تلك الليلة في سان فرانسيسكو، عندما أخذه رجلٌ صينيّ (لم يستطع أن يتذكر اسمه) إلى مكان قريب من المرسى حيث قُرئ له حظُّه في ثمالةِ الشاي في قعر الكُوب[٤٨].

كلمة nostalgia [حنين] (تذكَّر أنه قرأ ذلك في مكان ما) ابتكرها طالبٌ ألزاسيّ في أطروحةٍ طبية في القرن السابع عشر ليصف الداء الذي ألمَّ بالجنود السويسريين البعيدين عن جبالهم الأمّ. بالنسبة إليه، كان العكس صحيحاً: كان الحنين هو ألم الاشتياق إلى أمكنةٍ لم يَرها من قبل أبداً.

اكتهلَ بغتةً، أو لعلها الكهولة فعلاً. لقد ناهز أربعة وأربعين عاماً وما عاد هذا العمر عمرَ الذهاب للاستكشافات.

لاحظ أحدهم ذات مرة أن الحياة الرومانسية لا تناسب

كاتبَ الرومانس، فالمرء لا يكتب قصص مغامرات أفضل عبر تعلُّمِ الاحتطاب وسلخ جلود الأرانب. ربما الآن، وقد ابتُذِلت الحياة وترسّخ الروتين والأشياء نفسها على مرّ الأيام تُبادل باللامبالاة نظرتَهُ اللامبالية، الآن إذ لم يتبقّ وهجٌ في لياليه مع فاني التي - من باب قلقها على صحته أو جرّاء العياء فحسب - تكتفي بأن تطبعَ قبلة "تصبح على خير" على خدّه قبل أن ينام، ربما كان لِزاماً عليه الآن أن يكتب شيئاً يستحقّ الاهتمام مليئاً بالدمِ الحقّ والغضب الحقيقي. باستثناء ذلك الشطط الأسود الذي أساء إلى فاني كلَّ الإساءة، فقد كان الكتابُ الحالي يتقدم منساباً، وأحسّ بأنه جاحد تجاه الأقدار التي أتاحت له لحظة النعمة هذه.

دامت نوبة المرض، هذه المرة، أسابيع عدة. كلما ظن أنه أقوى وحاول النهوض بنفسه من السرير، كان يتهالك في نزلةِ سعالٍ ناكس يلطّخ المنديل من جديد ويترك دوّامة دمٍ في المبصقة. الدكتور فانك، طبيب العائلة ذو الاسم العجيب، أتى وراح عدة مرات، ولكن - كما أخبر فاني - لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله سوى الانتظار

والصلاة، والثقة بأن الجسد سيتماثل للشفاء من تلقائه.

وبعد نحو شهر من ذلك، عندما كان ستيفنسن يشعر بتحسُّن يكفي للجلوس وحتى لتمضية بضع ساعات في مكتبه، ولم يكن يكتب في الواقع بل كان يمرُّ بقلم الناقد على مخطوط الكتاب المهجور، أتاه سوسيمو ليخبره أن توتاي قد أتى مرة أخرى ويريد أن يراه.

نهض ستيفنسن ببطء واتجه إلى الباب مادّاً يده بالتحية.

رفض توتاي أن يصافحه.

"هل جرحتُك بطريقةٍ ما؟" سأل ستيفنسن، متفاجئاً.

"تتذكّرُ ابنتي؟"

"لم ألتقِ بها قط، توتاي، ولكنني أتذكر أي شيء مريع وقع عليها. سمعتُ أيضاً أنهم لم يهتدوا إلى القاتل قطّ"

"بل رأيتَها، توسيتالا. في وليمة العيد. كانت ترقص وأنت تفرّجتَ على رقصِها"

لم يقلْ ستيفنسن شيئاً.

"فايرا... تأذّتْ قبل أن تُقتل"، قال توتاي، كأنه يبحث عن الكلمة الصحيحة.

"أجل، أعرف، توتاي. لقد كنتُ آسفاً جداً، جداً. أنا آسف جداً"

"كان عمرها أربع عشرة سنة. كانت مقبِلةً على الزواج. اختلَّ عقلُ أمها حُزناً عليها"

قال توتاي بضع كلمات بلغة ساموا لم يلتقطها ستيفنسن، ورفع شيئاً إلى وجهه.

"هذه... هذه لك؟"

أخفض ستيفنسن بصره فرأى أن توتاي ممسكٌ بقبعةٍ عريضة الحوافّ معتصرة في قبضته السمراء الضخمة. حملق بها، ثم بالرجل.

"أمس، عثر ابني على هذه في حرشٍ قريب من المكان الذي اكتشفنا فيه جثمان فايرا. يقول ابني إن قبعتك مثل هذه"

"بلى، هذه تبدو مثلها. لكن قبعتي هنا، في البيت"

رمق ستيفنسن القبعة من جديد، ثم نظر باتجاه صفّ المشاجب المجاورة لباب المدخل. لم تكن قبعته هناك.

"توتاي، أتفهّم أي محنةٍ تقاسي، وأنا أيضاً آسف جداً، ولكن ابنك بالتأكيد لا يعتقد أن هذه القبعة تمتُّ بأي صلة

إليّ. ربما سقطتْ مني يوم ذهبنا معاً، أنت وأنا، إلى مكان الجريمة"

"لم تكن تعتمر قبعتك في ذلك اليوم. أنا أتذكر. ظننتُ أنك قد صرتَ مثلنا الآن، لا تهابُ الشمس"

"توتاي، أرجوك اسمعني. أعرفُ أن هذه قبعةُ شخص آخر من غير بد، أو ربما أخذ أحدهم قبعتي وضيّعها على الجبل. رُويدك: إذا أحببت، فسوف نكلّم كبير القضاة مرة أخرى. سنُريه القبعة ونخبره أين عُثِر عليها. إنه يعلم أي إجراءات ينبغي اتّخاذها"

ألقى توتاي القبعة المعفّرة بالتراب على الأرض.

"كبير القضاة رجل أبيض"، قال.

"من جهةِ أبيه فحسب. كانت أمُّهُ ابنةَ عائلة باييا[٤٩]"

"أقول لك إنه رجل أبيض. إنه يتكلم كرجل أبيض. وأنت، توسيتالا، رجلٌ أبيض. سيكون الكلام عبثاً"، ثم خرج.

ترك ستيفنسن واقفاً وقد انتابه الغثيان في الصالون الخالي.

* * *

حاول عدة مرات أن يخبر فاني عن القبعة، ولكنه فشل. لقد نأت عنه وتكدّر مزاجها خلال نوبة مرضه الأخيرة. رآها، بضع مرات، خلال زواجهما يلفّها ما يشبه الملَنخوليا[٥٠]، ولم تكن تسمح له بالتقرُّب منها في تلك الحال. أحسَّ بحزنٍ لا يُطاق. المنزل الذي منحه في البداية الكثير من الفرح، وهما يرتّبان الأغراض ويضعان الخطط لتكبير المساحة وتوسيع الغرف، تراءى الآن أشبه بضريحٍ موحش وتُنْديه الرطوبة. ما كان في ما مضى جديداً تشوبه الآن علامات التحلّل، إذ كلُّ شيء يتلف في الطقس المداري بسرعة كبيرة. احتفر النملُ الأبيض أعشاشه في الأثاث على الشرفة: وصلت غمائم من النمل الأبيض ذات مساء، وبعد أن نضَتْ عنها أجنحتها، تدافعتْ عبر ثقوب في الخشب، متواريةً في الطاولات والكراسي، تاركةً وراءها على الأرضية وابلاً من القشور الفضية المنسلخة. طبقة رقيقةٌ لمّاعة من مادة رمادية شبيهة بالطحلب غطّت الستائر التي أرسلوا في طلبها من فرنسا منذ سنتين لا أكثر، وبيوت عناكب مخرَّمة تمتدُّ خيطانها عبر زوايا أُطُرِ الشبابيك، رغم التنظيف اليومي بيد الخدم. وكتُبه،

التي جلبها معه مصنَّفةً ومنضّدة بكثير من الحرص، قد تبقّعت الآن بفطرياتٍ خُضر وآوَتْ خنافس من نوع ضئيل الحجم وضعت بيوضها عميقاً بين مَلازم كلّ كتاب. حتى الشمع والورنيش اللذان أصرّت فاني على وقاية كرسيه ومنضدته بهما، بديا كأنهما ذائبان في رطوبة الحرّ، وكلما جلس ليعمل، التصقا براحتيه ومعصميه.

لم يستطع الرجوع إلى الكتاب. أحسَّ أنه قد تخلّى عن شخوصه وتركهم معلّقين في خضم العبارات، وقد ضيّعَ أثرهم في مكان ما على الصفحة، وكانوا ينتظرونه في الظلام لينقذهم. كما أحس أنه لا يصلح لشيء، وعاجز عن الابتكار. جلس إلى منضدته مفكراً أنه لو استردَّ حيويته البدنية من جديد، فلربما واتَتْه الكلمات. تقرّى بطرف إصبعه فتّاحة الرسائل المصنوعة من العاج، وحافة المحبرة الفضية، والسلحفاة الحجرية المنحوتة من حجر الصابون الصيني[٥١]، والميدالية المنقوشة بصورة الأمير الجميل تشارلز[٥٢]. إلى مَن سيتضرّع، وهو الذي قال ذات مرة إن الله ليس إلا رواية أخرى متخيَّلة؟ كم صُعق أبوه المتديّن المشيخي[٥٣] الصارم بهذا الاكتشاف، وبأي قنوطٍ

كتب الشيخ إلى ابنه الضالّ رسالةً احتفظ بها ستيفنسن بعد وقت طويل من التئام القطيعة بينهما:

> لقد عملتُ من أجلك وبذلتُ كل شيء من أجلك... ومنتهى ذلك كله أن أجدك تعترض على الرب يسوع المسيح... خيرٌ لي ألف مرة لو أراك عاجلاً ترقد في قبرك قبل أن تزعزع إيمان شبّان آخرين، وتجلب الخراب على بيوت أخرى كما جلبته على هذا البيت.

انقضت شهور كثيرة قبل أن يعاود الأب والابن التحدث مع بعضهما بعضاً من جديد. ورغم أن الحبَّ الحقيقي الذي يكنُّه كلاهما للآخر لم يرقَ إليه أي شك، فقد تغيّر شيء ما إلى الأبد بعد أن كُتِبت تلك الكلمات وقُرِئت. بمرور الوقت، وبعد أن مضتْ به التجربة والمكان بعيداً عن بيت أبيه، ارتدّ متسلّلاً إلى روحه حسُّ الاعتقاد باللامعلوم، شيءٌ أشبه بحدس الإيمان. ولكن حتى الآن، بعد انقضاء سنين كثيرات، وحتى لو لم يعُدْ ينكر الألوهية، لا يزال يشعر أنه شخص متروك في الخارج، على عتبة بيت جميل، في ليلة شتوية طويلة، منتظراً أن يُنادَى ليُسمَح له بالدخول.

كان هناك قرْعٌ على الباب، وأخبره أحد الخدم على استحياء أن كبير القضاة يريد أن يراه.

كان كبير القضاة رجلاً ضخماً يقف دائماً بكتفين متهدّلين كأنه يخجل من قامته الفارعة. كان كثير الابتسام، ما كان يبثُّ الراحة في نفوس بعض الناس ويقلق آخرين ويقضُّ مضجعهم، وكان يستغلُّ هذه الموهبة ويجني منها جمَّ الفوائد. كان يحبُّ الشخصية المشهورة بين أهالي ساموا، وكم استمتع الرجلان بما أمضياه من ليالٍ طوال وهما يتسامران ويحوكان الحكايات. جلس على الكرسي قبالة كرسي ستيفنسن وراح يترد بمروحةٍ ورقية صغيرة.

"تبدو مخطوفَ اللون، إذا سمحت لي بمثل هذا القول. تعلم أن هذا الفصل الرطب، قبل هطول الأمطار، سيئ للصدر من النواحي كافة"

"لكنه جيد لنموّ الأشياء. يقول لي سوسيمو إننا مقبِلون على غلالٍ وفيرة السنةَ القادمة"

"سوسيمو على حق. هل أنت مستعدٌّ لحديث؟"

"حديث مهنيّ أم بين أصدقاء؟"

"القليل من كليهما"

”هلمّ. أتخيّل أنه متعلّق بابنة توتاي“

”هذا الموضوع أضنى العائلة. كان شيئاً مريعاً. أي طفلة رقيقة حلوة كانت. مقبِلة على الزواج. هل أخبرك توتاي عن القبعة؟“

”هل تظنُّ مقترف الجريمة، أياً كان، قد أوقعها هناك؟“

”أظنُّ ذلك، نعم. كانت هناك على حافتها لطخةُ دم، كأنه خلع القبعة في ما بعد، ممسكاً بها هكذا“

بيّنَ كبيرُ القضاة الحركةَ بالمروحة.

”ولكن لماذا؟“

”لماذا خلعَ القبعة؟ ليمسح العرق عن جبهته، ربما“

”نعم، طبعاً. على أي حال، لا أظنّها قبعتي، لكني لستُ متأكداً“

”أليست قبعتك عندك؟“

”كلا، لا أستطيع العثور عليها. لا بد أنني قد ضيّعتها، ولكني لا أستطيع أن أتذكر متى“

”ألم تصعدْ إلى الجبل أخيراً؟“

”أخيراً؟ كلا“

افترّ كبير القضاة عن ابتسامة عريضة، وغاصت رقبته بين كتفيه، مثل سلحفاة.

"أعني أنا، لن أصعد إلى هناك أبداً. لا يمكنني تحمُّل الصعود، وأنت تعلم"

ابتردَ محرّكاً المروحةَ بقوّة كأن فكرة الحَرّ بحد ذاتها قد رفعتْ حرارته أكثر. ثم سأل: "هل رأيتَ أيَّ غرباء في نواحي فايليما؟"

"غرباء؟ كلا"، أجاب ستيفنسن بسرعة بالغة.

"هناك إشاعات، كما تعلم. ثمة مبشّر آتٍ من الطرف الآخر للعالم حيث بلادكم. شيء مضحك، هؤلاء الواصلون حديثاً. الناس هنا يذهبون بصيت الوافدين الجدد إلى الآفاق. أنت تفهم ما أعنيه. يصل شخص جديد فيتّهمُ من الفور بكل جريمة وقعت تحت الشمس، وليس هناك ذرةٌ من الحقيقة في أي اشتباهٍ. أعتقل أحياناً أحدهم، كما تعلم، pour encourager les autres [تشجيعاً للآخرين][٥٤]"

"آه، بلى، فهمت. السيد بيكر. بلى، التقيتُه بالمصادفة على الشاطئ. فقلتُ في نفسي إنه جنتلمان لا يؤذي أحداً. وعيدهُ يقدحُ ناراً وكبريتاً[٥٥]، ولكنني ما كنتُ لأتخيّله قادراً

على ارتكاب أصغر فعلة من العنف الحقيقي. إنه شديدُ التقوى، إذا كنتَ تعلم ما أعنيه"

"أتفق معك، أتفق معك. نعم، كلُّ الوافدين الجدد، وخصوصاً إذا كانوا في مضمار التبشير، تتقدّمهم نمائمُ خبيثة. أحياناً ملفّقوها هم السكان الأصليّون، ولكن في أحيان كثيرة المبشّرون الخصومُ أنفسهم هم الذين يدبّجون لوائح الفظاعات هذه لإخوتهم. وفي حدود ما تناهى إلى مسامعي، فإن السيد بيكر خاصتك متَّهمٌ بالسرقة والاغتصاب وقتل القضاة وتسميم الجنود والإجهاض واختلاس الأموال العامة. اللافت خلوُّ هذه الاتهامات من انتحال الصفة وإشعال الحرائق عَمْداً"

"أليس مستغرباً بأي كثافة تطير الاتهامات في عالم بحر الجنوب هذا[٥٦]؟ ليس عندي شك في أن شخصاً مثلي قد ذاع صيته أيضاً"

"بالمعنى الإيجابي للكلمة فقط، سيد ستيفنسن، بالمعنى الإيجابي فقط. والآن، على ما أظنّ، سأكفُّ عن إزعاجك"

ولما غادر كبير القضاة، لبث ستيفنسن بضع دقائق

تتجاذبه الأفكار، ثم أمسك قلمه، وغمسه في الحبر، وكتب:

نحن أشرار، يا الله، فأعنّا لنرى شرَّنا ونقوّمه. نحن خيّرون فأعنّا لنصير خيراً مما نحن عليه. اعطفْ بعينك الصبورة على خادميك، حتى عندما ترسلُ الشمس والمطر؛ تعطّفْ بنظرتك وناد رميمَ العظام لتُحييها وتعجّل رجوعها إلى الحياة؛ اخلقْ فينا من جديد روحَ الخدمة، روحَ السلام؛ جدّدْ فينا معنى الفرح[٥٧].

مسح القلم واتكأ إلى ظهر كرسيه. لم يكن هذا ما أراد أن يكتبه، لكن الحاجة إلى الصلاة كانت أقوى من إرادته لمواصلة القصة. فكر للحظة في السيد بيكر، الذي لم يره (كما أدرك الآن) منذ وقت طويل جداً، ولم يكن يعرف عنه إلا أقلّ القليل. فكر في أن السيد بيكر كان سيوافقه الرأي.

كان كانون الأول/ ديسمبر، شهر المطر الساخن، موشكاً على الحلول، فاستقلَّ ستيفنسن العربة إلى آبيا ليشتري المؤن مع سوسيمو. كانا قد انتهيا للتو من الطلب عندما ظنّ ستيفنسن أنه قد رأى المبشّر يدخل الحانة عند ناصية السوق.

"ذلك الرجل"، أشار على عجل حتى يتسنّى لسوسيمو أن يلمحه. "هل تعرفه؟"

هزّ الخَوليّ رأسه نافياً، لكن السمّان الصيني أجابه وهو يبصق على الخشب الصلد للأرضية.

"أنا أعرف ذلك الرجل. منذ أسبوع فحسب، جاء إلى هنا وبدأ يصيح ويزعق حول الخطيئة والتهلكة. ثم تناول فأساً من فؤوسي وراح يكسّر براميل الخمر. ناديتُ على حرّاس السوق ولكن بعد فوات الأوان. لقد هشّم ستة براميل، ولن يعوّض لي أحد ثمنها الآن"

"ماذا فعل الحرّاس؟"

"كان قد انصرف عندما وصلوا. وعلى أي حال، هل سبق لك أن سمعتَ عن اعتقال مبشّر في ساموا؟"

"فلماذا إذن يذهب إلى الحانة؟"

”لا ليشرب، هذا مؤكَّد. إنه يعِظ هناك محاولاً بكلامه أن يقلبَ كؤوس الجميع خَلّاً وعلقماً“

”هل يهديهم إلى المسيحية؟“

”كلا، لكن الناس يهربون عندما يرونه قادماً. صاحب الحانة لا يسرّه ذلك“

تاركاً لسوسيمو أن يتولّى تحميل المشتريات، اجتاز ستيفنسن الطريق ودخل الحانة. استغرقت عينيه بضع دقائق حتى تأقلمتا مع العتمة، ثم رأى السيد بيكر في زاوية بعيدة، متحدثاً إلى امرأة من السكان الأصليّين وهو ممسك بها من ذراعها. ولما لحظ ستيفنسن، أفلتَ المرأة فلاذتْ بالفرار عبر الباب الخلفي.

”أرى أنك قد تقدّمت من الإحصاء إلى الوعظ يوم الأحد“، قال ستيفنسن.

”الفساد هنا في الهواء كثيف جداً إلى حدّ أنه يصعب عليّ أن أتنفّس. أنا أُريهم ما سوف يأتي، وهم لا يحبُّون مظهر النار الخالدة“

”أعتقد أن عليك إنهاء إحصائك والانصراف. الرئيس ملزَمٌ سماع الشكاوى، وعندئذ قد تنقلب الأمور إلى ما

لا يسرّك"

"ليس ما أخشاه رئيس هذه البلدية التافهة آبيا. ألا تستطيعون أن تشمّوا ألسنة اللهيب التي تقترب؟ ألا تستطيعون أن تشعروا بالحرارة والرماد في خياشيمكم؟ ذاك هو ما أقوله لهم، ولكنهم أوغلوا بعيداً ولن يأبهوا بأي تحذيرات. ذلك هو ما شرحتهُ لكبير قضاتكم. لقد جاء ليراني. تبادلنا الأحاديث"

"هل سألك عن... عن الأحداث فوق في الجبل؟"

"قلتُ له إن مثل هذه الأشياء لا ينبغي أن تفاجئه هنا. كلُّ شيء فاسد ويثير الاشمئزاز. ليس خسران تلك الفتاة مصاباً عظيماً. هل كنت تحسبها جميلة؟"، تلجلج صوت السيد بيكر، وتجمّعت قطيراتٌ ضئيلة من بياض الزبد في زاويتي فمه.

"ما التقيتُها قطّ"

"أوه، ظننتُ... حسناً، على كل حال، لقد غربتْ عن وجوهنا"

"لا تتفوّه بمثل هذه الأشياء"

"يوم العقاب آتٍ. ولسوف نرى آنئذ ما خسرنا وما

جنينا[٥٨]. ألم يقلْ لك أبوك تلك الكلمات نفسها ذات مرة؟"

مدوَّخاً بالدخان، وقد مازجته الرائحةُ الحلوة القوية الشبيهة برائحة ياسمين ذابل خُيّل إليه أنه لم ينتبه إليها إلا الآن، صعب عليه التركيز على السيد بيكر الذي كان يتأرجح في كرسيه نحو الأمام ونحو الخلف، ساحباً كأسه إلى مقربة خطيرة من حافة الطاولة. ولهنيهة طالت، كان هناك ما أغوى ستيفنسن بترك المبشّر يتأرجح أكثر وأكثر، ليسمع الكأس وهي تتحطّم على الأرضية الصلدة. مكرَهاً قال، ولم يكن قوله اقتراحاً بقدر ما كان آمراً: "سأعيدك مشياً إلى حيث تسكن"

"أنتَ على حق. سأذهب. فهذا كله من دون طائل بالفعل"

اجتازا السوق ودخلا متاهة من الشوارع الرطبة التي يفوح منها عطن الملفوف والسمك. وفي نهاية زقاق صغير مسدود، وصلا إلى بوابة خشبية، ومن بعدها ممشى مرصوف بأحجار نهرية[٥٩] ناتئة، ثم إلى باب أشعل صريرهُ نباحَ حشدٍ من كلابٍ لا تُرى. صعدا سلّمين من أدراج

متداعية ثم ولجا غرفة واسعة غير مؤثّثة، ولم يكن مدخلها محميّاً إلا بستارة من الخرز. في الداخل، كانت هناك امرأة ضخمة جالسة على الأرض وهي، كما لم يخفَ، تطعم جَمعاً من أطفالٍ متفاوتي الأعمار. التفتتْ لما سمعتْهما يدخلان، فرأى ستيفنسن على وجهها العريض سيماء الذعر المحض. أما السيد بيكر، فحتى لم ينظر باتجاهها، بل اجتاز الغرفة ودخل الغرفة التي تليها. وهنا أيضاً لم يرَ ستيفنسن أي أثاث باستثناء رف كتب يقوم مقام مكتبة، وعليه بضعة مجلدات مهترئة، وطاولة صغيرة مربَّعة وكرسيين من الخيزران مركونين كيفما اتّفق في إحدى الزوايا على حافة دائرة الضوء التي يلقيها قنديل زيت يتدلى من السقف.

"أحضري لنا شيئاً نشربه"، نادى السيد بيكر ثم جلس على أحد الكرسيين، مومئاً إلى ضيفه بالجلوس على الكرسي الآخر. سمع ستيفنسن هرولة، ثم قرقعةً للأواني والصحون؛ وأخيراً امتدّت يدٌ سوداء صغيرة من قلب العتمة خلفهما ووضعت إبريقاً وقدحين على الطاولة.

صبَّ السيد بيكر الشرابَ في القدحين ودفع بأحدهما

نحو ستيفنسن.

"اشربْ. إذا كنتَ ستواصل العيش في هذا المكان الجهنمي، فعليك إذن بتقوية نفسك، جسماً وروحاً أيضاً"

"كنت أحسبُك لا تعاقر المسكرات"، قال ستيفنسن.

"لستُ كذلك، أما هم، فالامتناع واجبٌ عليهم"، أجاب السيد بيكر ببطء. "بمستطاعي الذهاب في الطريق الذي أعرف بوجوده أمامي؛ أما هُم، فكلُّ قطرةٍ ضلالٌ إضافي لهم. سأغتبط بتركهم يحترقون في سعيرهم، فأنقعهم في الكحول الذي يبدو تلذُّذهم به عظيماً، ثم أضرم عودَ ثقاب في الحصيلة بأكملها. إنني أمقتُ هؤلاء البشر الضائعين"

"فماذا عني إذن؟ ألستُ روحاً ضائعة ليُسمح لي بالشراب؟"

ضحك السيد بيكر. "تلك مسألةٌ أنت مَن عليه البتُّ فيها".

"لن أحرم نفسي من كأسٍ وطبق طيّبين. ولن أحرّمها على إنسانٍ آخر بين سائر البشر. حبُّ الحياة ولعٌ قوي،

ولقد انقدتُ دائماً إلى فتنته حتى في الأشياء التافهة مثل الطعام والشراب"

"حقاً؟"، قال السيد بيكر. "حسناً، أنا أستنكر أن الحب ولعٌ قوي. الخوف ولعٌ قوي؛ عليك بمعايثة الخوف إذا شئتَ أن تتذوّق ألذ مباهج العيش"

"لديَّ نصيبي من الخوف أيضاً، لكنني أستخدمه لأحبّ الحياة بولع أشدّ"

"الحياة التي تُبْلي رئتيك حتى تستحيلا خرقةً مهترئة، وتجعلك تسعل حتى تتلطَّخَ بالدم مناديلُك؟"

"طارئٌ هو الدم على منديلي، إنه لا يلوّن تصوُّري للحياة. ما آذاني ولا غيّرني في أي منحى جوهري"

"هذا قولك إذن. إذا كان بمستطاعك التنعُّم بحياة صحية على حساب حرمان كل هؤلاء المنكودين الخبز والماء، دع عنك الخمر، فإنك ستحرمهم إياها. ستتاجر بروحِ أي إنسان مقابل راحتك الخاصة"

"أنت تعرف أن ذلك ليس صحيحاً"

ابتسم السيد بيكر. "لحسن الحظ، أنت لا تملك الوسائل لتمتحن مثل هذا الرهان"

"لكنني أودُّ لو امتحنتُها، كرمى لك أنت. أريد أن أطلعك على حقيقة موقفي"

ران صمت طويل، وأثناءه راقب ستيفنسن الابتسامة الوانية للسيد بيكر خاليةً من أي مرح ترتسم بالضبط على حافة هالة النور على الطرف الآخر من الطاولة. أحسَّ بالحاجة إلى كسر الصمت.

"أنت محقٌّ تماماً. حضارتنا دجَلٌ أجوف. إنها مضيعةٌ لبهجة الحياة كلِّها. ما كلُّ فوزٍ فيها إلا استمرار في زيادة عدد التعساء المتعاصرين على سطح هذا الكوكب. ولكن هناك لحظات كثيرة جداً من الفرح الخالص، قبسات من الفردوس، وأنا من أجلها أحيا. ومع ذلك لن أقبلَ أن أكون المتسبّب في شقاء أي شخص، حتى لو في سبيل واحدة من تلك الهنيهات"

بدأ ستيفنسن يغالب النعاس مع شرب النبيذ. حدّق في الظلام الذي يلفُّ المكان، فخال أن بمستطاعه أن يتبيّن، وراء مُضيفه، أشكالاً رقيقة كابية اللون يحفُّها الضوء المتذبذب، كما لو كانت هناك أغراض رطبة أو مزيّتة تنزاحُ من دون جلبة على الجدران. ظنَّ، في إحساسٍ

مبهم، أنه قد سمع ضحكاً أو غناء، يتخطّى بقليل عتبةَ الصوت المسموع، وكذلك نحيباً مخنوقاً، كأنه (قال في سرّه) شخصٌ لا يريد أن يعلم أحد ببكائه. توقفتِ الحركة على امتداد الجدران ثم بدأت من جديد في خلاعةٍ تطوّح بالعقل. أشاح ستيفنسن بناظريه.

والآن أحسّ بثقلٍ في ساقيه اللتين تخدّرتا تقريباً، وإذ مدَّهما تحت الطاولة ساوره انطباع بتوغُّلهما في فراغ، فزلّتْ قدماه داخل ثقب في الأرضية الخشبية، فاضطر إلى التشبُّث بذراعي كرسيه الخيزران ليقيَ نفسه من التزحلق أو لكيلا تغورَ به الأرض. فغر فمه فانتابه الحرج، ورفع ناظريه ليرى هل لاحظ السيد بيكر شيئاً، لكن ابتسامة المبشّر لم تكن قد تغيّرت، ورغم أنه لم يتمكن من تبيُّنِ عيني الرجل، بدا لستيفنسن أنه يبادله النظر، لا متهكّماً بل مستَمتعاً.

بغتةً، خامر ستيفنسن انطباعٌ بأن ساعاتٍ عدة قد انقضت منذ بداية دخوله إلى الغرفة مع السيد بيكر. هل بدأ مضيفه الكلام الآن فحسب؟ لم يستطع الجزم. إذ كان هناك، إلى جوار الإبريق الذي عاد مليئاً مرة أخرى، طبقٌ

من أسماك صغيرة مقليّة لم يلحظه من قبل، وتراءت له عيونها السود الجامدة كعيونِ مخلوقٍ وحيد مدوَّر الشكل يحدّق فيه بطريقة مرعبة من منتصف الطاولة. كم كانت الساعة؟ من مكانٍ ما، في غرفة خلفية، تناهت دقّاتُ ساعة حائط. تذكّر ستيفنسن قصة راهب ألْهَته أغنيةُ عصفور عن عمله في الوِراقة ونسخ المخطوطات. فخرج إلى حديقة الدَّير ليستمع إليها عن قرب، ولما عاد، بعد ما حسبه بضع دقائق لا أكثر، اكتشف أن قرناً قد مضى، وكان صحبه الرهبان قد ماتوا واستحالَ حبرهُ غباراً. لقد منحته أغنية العصفور مذاق الفردوس حيث اللحظةُ بمئة سنة من الزمن الأرضي. وسأل ستيفنسن نفسه: هل يصحُّ الشيء نفسه على الزمن في الجحيم.

امتدّت اليد الصغيرة من داخل الظلام لتملأ كأسه من جديد. راقب ستيفنسن النبيذ يعلو إلى حافة الكأس. حاول أن ينهض واقفاً لكن الثِّقل في ساقيه أعاده إلى الجلوس. استطاع أن يتمتم ببضع كلمات ففهم مضيفه من حركات شفتيه أنه مضطر إلى الرجوع وأن سوسيمو ينتظره، ثم انصرف.

بطريقةٍ التبستْ عليه، كما لو كان بين الحلم واليقظة، ووجهه نحو الأعلى، رأى في سقف الغرفة دائرةً شاسعة يقف القنديل فيها مستديراً كَعَين. أحسَّ أن هناك مَن يتعقّبه في عبوره غرفاً معتمة أخرى وتحت سقوف صُفرٍ أخرى، وسمع أنيناً ونواحاً وتوسلات، وأيادي تحاول أن تشقَّ ثيابه ولحمه. أحسَّ بأيادٍ تمزّق صدره، وسرى ألمٌ مبرّح في جسمه بأكمله. بلغت منخريه رائحةٌ فظيعة شبيهة برائحة لحمٍ متفسّخ، ثم هبوب هواء الليل المنعش وإن كان ساخناً. بعد ذلك، لم يعد يشعر بأي شيء. في اليوم التالي، قال سوسيمو إنه سرعان ما لقاه يغطُّ في النوم وسط المؤن في مؤخرة العربة.

بدأ هطول الأمطار يوم الخميس؛ ملاءات سودٌ من الماء وارَتْ كلَّ شيء عن الأنظار وأغرقتْ كلَّ صوتٍ سواها. استشاطت فاني غضباً عندما أخبرها بما حدث، ولكن تغيّر مزاجها، على ما يبدو، في مطر الصباح، وكانت بحلول المساء تبتسم. لم يكن مريضاً طوال اليوم. في الحقيقة، أحسَّ أنه قوي بما فيه الكفاية في ذلك المساء لقبول دعوة الرئيس إلى العشاء المقام على شرف هذا أو

ذاك من الضباط. بطبيعة الحال، لم يكن يحبّ مثل هذه التجمّعات، ولكنه في هذه الليلة أراد أن يحتفل. عقد ربطة عنقه أمام المرآة وشاهد زوجته تقف وراءه تشدُّ مُخصّر فستانها.

استرجع عصر ذلك اليوم الذي التقى فيه فاني للمرة الأولى. كان غسق يوم صيفي، وكان عددٌ من الضيوف يجلسون حول المائدة في الفندق الصغير في غريتس[٦٠] قرب فونتينبلو. كان يتمشّى في الغابة وعلى ظهره حقيبة شاعراً باسترداد عافيته في الهواء الفرنسي العليل، ولما رأى الأطباق تدور على المائدة، دخل واثباً عبر إحدى النوافذ المفتوحة ليسلّي بتلك الوثبة أصدقاءَه. كان بين الضيوف عديدون لا يعرفهم. أما التي استحوذت على انتباهه، فسيدة لسانها أميركي قحّ، فاحمةُ الشعر، تصحبها ابنتها ذات الأعوام السبعة عشر، وابنها ذو الأعوام الثمانية. كانت فاني تكبره باثني عشر عاماً، امرأة متزوجة تركتْ زوجها الفظيع في سان فرانسيسكو وهربتْ إلى أوروبا. أصيب ابنها الأصغر بعدوى الإنفلونزا وتوفّي في باريس، وها هي الآن هنا في فرنسا مع طفليها المتبقّيين

لتبني حياتها من جديد. قال ستيفنسن في ما بعد إنه لم يندهشْ هكذا من قبل أبداً بالحيوية وبقوة الفطنة الخالصة في وجه إنسان.

"أحببتَني لأنك ظننتَني الشيطان"، قالت له فاني بعد وقت قصير من زواجهما. "يعلم الجميع أن الجمال من نصيب البِيض الشقر. أوحت إليك بشرتي الغجرية السمراء بألا تتوقع أيَّ شيء مني إلا نكَد المزاج"

كان مزاجها نكداً بالفعل، أما الآن، فكانت تبدو خالية البال، كأنّ توقّدها قد استحال سوداويةً وكآبتُها هدوءاً، وكان رجاؤه أن هذا الهدوء شكلٌ من الرضى. أخذ يدها فقبّلها وتقدّمها إلى الأسفل نحو العربة التي تنتظرهما.

كان منزل الرئيس في آبيا يجهر بأنه مقرُّ الحكومة، لا بسبب فخامته أو معماره الرفيع، وإنما بسبب حجمه لا غير. كان مبنياً على منحدر يطلّ على البلدة، وفق النموذج نفسه المطابق لما بُنيت عليه المنازل الكولونيالية الأخرى في آبيا، مع شرفةٍ ذات سياج شبكيّ، وسطح أبيض مائل مثل هرمٍ مبتورِ القمّة يتوجّب إصلاحه بعد كل موسم ممطر، ونوافذ طويلة ذوات مصاريع تمنع دخول أشعة

الشمس الأقوى ولكنها عاجزةٌ أمام أسراب الحشرات التي تهبط في الليل وتجتذبها قناديل النفط الصفراء. استقبل عائلةَ ستيفنسن حاجبٌ من السكان الأصليّين يرتدي زياً رسمياً، فأعان فاني على النزول، ثم أمسك بأعنّة البغل في حركة متوتّرة.

وبينما صحبتْ زوجةُ الرئيس فاني لتلتقي "مدام فيردان التي تبهج القلب" (كانت، كما لا يخفى، زوجة تاجر بلجيكي، شغوفة بالأدب "التهمت كلَّ سطر من أعمال مسيو ستيفانسون[٦١]" وقد منعها خجلها الشديد من ملاقاة المؤلف نفسه، ولكنها شعرت أنها، على أي حال، أهلٌ لعبادة زوجة إلهها). انتحى الرئيس بستيفنسن في إحدى الزوايا وسأله راجياً ألا تبدرَ عنه أي إشارة إلى "المسألة الألمانية"[٦٢]، لأن العديد من رجال الأعمال الألمان كانوا في زيارة إلى آبيا في مهماتٍ رسمية. كانت رسائل ستيفنسن الساخطة إلى الصحف بخصوص القصف الألماني لقريةٍ في ساموا قد أثارت "امتعاضاً" ديبلوماسياً. وكان الرئيس، إثر الحروب القبلية الأخيرة على الجزيرة، يتطلّع إلى الحفاظ على هدوء الجوّ قدر

المستطاع. قدّم إلى ضيفه قدحاً من النبيذ.

رفض ستيفنسن، قائلاً: "لا لأنني لستُ راغباً في قدح، ولكنني قد أقلعتُ عن كلِّ المشروبات القوية والتدخين. أوامر الطبيب. ومع ذلك"، أردفَ ضاحكاً، "هذا ما فُطرتُ عليه، ولا يروق لي التفكير في الحياة من دون نبيذ أحمر على المائدة أو من دون تبغ، مع جمرة نارِه الصغيرة البهية!"

"دعني أخبرك أنني أتمنى لو كان هناك كثرٌ غيرك يبرّون بمثل هذه النذور. لُعنّا بفَورةٍ شيطانية من الأحداث عمّتْ أرجاء الجزيرة كافة، والكثير منها في اعتقادي سببهُ الشرب، بدءاً بذلك الاغتصاب المجرِم فوق في الجبل. وهناك الآن تدمير الممتلكات وحالات الضرب بكلِّ صنوفها. القبائل تلوم بعضها بعضاً، وذلك عندما لا يشيرون بأصابع الاتّهام إلى المبشّرين. يعتقد الدكتور فانك أن السبب قد يكون مادةً ما في الخمور المستورَدة. سمعتُ عن تلاحُقِ أحداث عنف مشابهة لهذه في تونغا، منذ بضع سنين"

"فعلاً"، قاطعَهما صوتٌ خلفهما. ولاح كبير القضاة فوق الرجلين، محدودباً مُشرِقَ الابتسامة. "في واحدة

من الجزائر الصغرى البعيدة عن سواحلنا اعتقدت مجموعةٌ من القرويين أن الشيطان قد مسَّ أصدقاءهم وآباءَهم وإخوتَهم وأخواتِهم. فقطّعوهم إرباً، وأحرقوا آخرين في محرقة. حتى الأطفال الصغار لم ينجُوا. يا له من عمل مروّع. يبدو أن موجة الجنون هذه تتّخذ أشكالاً مختلفة أنّى حلّت. لستُ واثقاً هل كان هذا الجنون هو ما نعاينه بالتجربة هنا، ولكن من الواضح أن بعض المبشّرين يستنصحون في السر الأطباءَ السحَرة ليعاوِنوهم على طرد الأرواح الشريرة. يبدو أن إلهين يفكّران معاً خيرٌ من إلهٍ يفكر وحده". وأطلق كبير القضاة قهقهة مدوّية.

"هل نحن السبب؟"، تساءل ستيفنسن. "هل هو تدخُّلنا ما يقود هؤلاء الناس إلى الجنون؟ تكاد لا تستطيع أن تتبيّن النقوش الصخرية فوق على سفوح الجبل، فهي الآن شديدة البهوت والاضمحلال. يقول أهل ساموا إن تلك الخربشات قديمةٌ قدمَ الجبال نفسها، كتبتْها الآلهة عندما انتهى خلقُ العالم. أما الآن، بوصولنا – معشرَ البِيض –ألهينا الناس عن عبادتهم الآلهة، وهكذا شاءت الآلهة أن تمحو توقيعها عن عملها. ووفق الآلهة الملامون

هم نحن، الدُّخلاء"

"هل رأيت بعينك تلك النقوش على الصخور؟"، سأل كبير القضاة.

"نعم، ما تبقّى منها"، أجاب ستيفنسن.

"لم يكن ذلك حين ضيّعتَ قبعتك، أليس كذلك؟"

"قبعتك؟" سأل الرئيس.

أجاب ستيفنسن: "يعتقد كبير القضاة أن القبعة التي عُثر عليها إلى جوار جثة الفتاة كانت قبعتي"

"لا، لا، بالطبع لا! أرجوك لا تسئ تأويل كلامي"، ناشدَه كبيرُ القضاة.

قال الرئيس مبتسماً: "أنا أضيّع قبعة كل أسبوع في هذا المكان. تخلعها لتمسح جبينك وتضعها على الأرض فتختفي"

بزاوية عينه، رأى ستيفنسن فاني تقترب، وتتقدّمها امرأة ضخمة ترتدي فستان مومو موشى بالدانتيلا.

"روبرت، مدام فيردان ترغب في لقائك لكنها شديدة الخفَر"

ابتسم ستيفنسن.

"يخيَّل إليها، على ما يبدو، أنها قد رأتك، في وقت أبكر من هذا المساء، في السوق. أخبرتُها بأنه قرينك[٦٣] من غير بذ"

"قرين؟"، استفسرت السيدة البضّة.

"شبحٌ، سيدتي. صورةُ شخص حيّ من دون جسده. يُفترض أنها تنبئ بالموت"، قال ستيفنسن موضّحاً.

"يا للفظاعة"، قالت السيدة وارتعدت.

"روبرت، ليس الأمر على هذه الشاكلة دائماً، أليس كذلك؟ كنت أظنُّه أشبهَ بظلِّ الشخص، ظلّ له حياته الخاصة به"

"هنا، نطلق على هؤلاء اسم آدارو[٦٤]، ولكنهم لا يشبهون الأجساد التي يسكنونها. إنهم أشبه بالطيور"، قال كبير القضاة.

"سواء طائرٌ، أم ظلّ، أم قرين، لكنني لم أكن في السوق اليوم، مدام فيردان"

فجأة عمَّتْ جلبةٌ الصالونَ الرئيسي. اعتذر الرئيسُ منسحباً. تبعه كبير القضاة. تقاطر الضيوف خارجين إلى الشرفة.

"حريق!" صاح أحدهم.

ستيفنسن وفاني ومدام فيردان أنعموا النظر من فوق رؤوس الفضوليين إلى البلدة تحت. كانت ألسنة اللهيب تتصاعد من مكانٍ ما في مركز البلدة، وكان دخانٌ أسود يتعاظم متماوجاً ومغطياً سماءَ الليل الصافية.

"ما الأمر؟" سأل ستيفنسن.

"يقولون إنها الحانة. الحريق مندلع"، أجاب أحد الضيوف.

وضع كبير القضاة يده على كتف ستيفنسن.

"يجب أن أنصرف"

"دعني أذهب معك"، قال ستيفنسن.

اعترضتْ فاني. "روبرت، الدخان"

"سأكون على ما يرام. لن أطيل مكثاً"

صعدا إلى عربة كبير القضاة فانطلقت بهما عبر الطريق الواضح المعالم. وحينما بلغوا منطقة السوق، كان اختراق حشد المتجمهرين قد أمسى مستحيلاً. وفي النهاية، تسللا خلاله وركضا، ففوجئ ستيفنسن برئتيه المطواعتين وبخفّة حركات كبير القضاة. لفحتهما الحرارة قبل أن

يتمكّنا من اختراق جمهرة المتفرّجين. رأى كبير القضاة أحد معاونيه في مكانٍ ما يتقدّم الحشد فصاح بسؤالٍ بلغة ساموا. ترجم الجواب لستيفنسن:

"الأبواب مقفلة والناس محتجَزون في الداخل. لقد ذهبوا ليجيئوا بالفؤوس"

والآن، وسط صيحات المحتشدين وتأجُّج الحريق، سمع ستيفنسن الصرخات الحادة ثاقبةً وطويلة كصرخاتِ حيوانات مذعورة.

"كم عددهم؟"

"لا أحد يعلم. ولكن الحانة تكتظّ، في مثل هذا الوقت. إضافة إلى النساء بالطبع"

شقَّ كبير القضاة طريقه بمنكبيه وتبعه ستيفنسن. كان الدخان كثيفاً، ولمّا اقتربا أكثر، شعر ستيفنسن بأنه بدأ يختنق، لكنه لم يستطع أن يتراجع. كان رجال عديدون قد بدؤوا ينهالون بفؤوسهم على أبواب الحانة. كانت زنود سمراء مفتولة تخبط وتتلوّى بضراوة عبر قضبان الشبابيك الصغيرة. دلاء ماء، تتناقلها سلسلةٌ من الرجال، سُكبتْ على النيران من دون طائل. كانت الحرارة عظيمة.

وأخيراً خُلعتِ الأبواب. فاضطرمت النيران لأن هواء الليل أذكى لهيبها، ثم، للحظة مديدة، ران صمتٌ محيّرٌ وبشع. مدثّرين أنفسهم بقطعٍ من قماش منقوع بالماء، تجاسر خمسة رجال أو ستة على اقتحام الأَتون. وبعد هنيهة، رآهم ستيفنسن يخرجون حاملين جثةً تلاشت ملامحها الإنسانية، سوداء كالفحم. علا من بين المتجمهرين عويلٌ مدوٍّ. انتُشل جثمانان آخران أو ثلاثة... ثم في انقصافٍ مباغت يقبض النفس، غارتْ دعائمُ السقف فاحتجزت واحداً من المنقذين. كان كبير القضاة يصيح مطلقاً الأوامر التي لم تكن، على ما يبدو، موجَّهة إلى أحد بعينه. بدأ طفل بالبكاء.

إحدى النساء بين المتجمهرين أشارت بإصبعها وصاحت. التفتت رؤوس عدة لترى. بغتة، أدرك ستيفنسن أنهم يحدّقون فيه. واصلتِ المرأة صياحها. انضمّت إليها أصواتٌ أخرى. تحرّك الحشد باتجاهه. أمسك به كبير القضاة من ذراعه.

"فلنبتعدْ"

"ما الأمر؟ ماذا يقولون؟"

"فلنبتعدْ. تقول المرأة إنها قد رأتك هنا حاملاً قنديل زيت. إنها تتّهمك بإضرام النار"

"أنا؟ لكن ذلك هراء!"، راح ستيفنسن يحتجّ، لكنّ كبير القضاة كان رجلاً قوياً. ولما انعطفا عند الناصية، رُشِق ظَهراهما بوابلٍ من الأحجار الصغيرة. أحسَّ ستيفنسن بضربة على كتفه اليسرى.

"تحتاج الحشود إلى العثور على ضحية"، قال كبير القضاة عندما عادا إلى العربة بعد أن سلكا إليها طريقاً طويلاً ملتفّاً عبر الشوارع الخلفية.

"ولكن ألا تستطيع إخبارهم بأنني كنت معك، وأنك قد رأيتني في منزل الرئيس؟"

"لن يستمعوا إليّ. إنهم يروون قصصهم الخاصة بهم، وهم يصدّقونها أيضاً"

بعد أسبوع، أقلَّ سوسيمو سيّدَه بالعربة إلى البلدة مرة أخرى. ولكنهما في هذه المرة، عند وصولهما المتجر الصغير، وجدا الأبواب موصدة والستائر مسدلة. كان مالكه الصيني، الذي تباهى دائماً بأنه يولي بعنايته الشخصيةَ الأشهر في ساموا، جالساً على كرسي هزاز

واطئ من الخيزران، جامداً كحجر.

"ألن تفتح؟"، قال ستيفنسن بعد أن ألقى التحية عليه.

"تلزمنا بضعة أشياء"

لم يجِبْهُ الرجل. وعوضاً عن تلبية الطلب، نهض ببطء عن الكرسي وتهادى في انصرافه باتجاه القسم الخلفي من البناية.

هرول ستيفنسن وراءه لكن الرجل نهاهُ وتوارى عبر باب جانبي. لبث ستيفنسن لا يحرّك ساكناً بضع دقائق، حائراً في ما يتعيّن عليه فعلُه، ثم استدار نحو سوسيمو الذي كان يراقب المجريات من العربة.

"سوسيمو، هل تعرف ماذا يجري؟"

رفع سوسيمو كتفيه. كان ولد صغير، هو حفيد العجوز على الأرجح، يسترق النظر من نافذة مغبرّة ثم اختفى إذ سحبته يدٌ ضخمة. وبعد بضع ثوانٍ عاود الظهور من وراء البيت محدقاً في الرجل النحيل الأبيض الذي كان واقفاً على أدراج دكّان عائلته.

"لماذا دكانكم مغلَق؟"، سأله ستيفنسن.

"ليس مغلقاً"، أجاب الولد.

"ليس مغلقاً؟" فإذن لماذا الباب مقفل؟ لماذا لا يسمح لنا جدُّك بالدخول؟ اذهبْ وقلْ له إننا بحاجة إلى شراء بعض الأشياء"

"الآخرون يستطيعون أن يشتروا، أما أنت، فلا"، قال الولد.

"أما أنا فلا؟ لكن لماذا؟"، أحس ستيفنسن فجأة بأنه أحمق، وهو يطالب ابنَ السنوات الست بالإيضاحات.

"لأنك سيئ، يقول جدي"، أجاب الولد وركض عائداً من حيث أتى.

"سيئ؟ سيئ؟"، كرّر ستيفنسن لنفسه بصوتٍ عالٍ، ثم التفت إلى سوسيمو مرة أخرى.

"سوسيمو، ماذا يعني كلُّ هذا؟"

"لا تشغلْ بالك. علينا التسوق في المتجر الآخر، الواقع على الطرف الآخر من الجسر. سيكون مفتوحاً"، قال الرجل العمليّ.

كان المتجر الآخر بناء متداعياً يكاد لا يتعدّى ما فيه بضعةَ أكياس من الطحين وأكواز السكر[٦٥] والشموع والتبغ والرُّوْم، ويديره فرنسي سكّير عجوز أتى إلى ساموا

منذ وقت طويل جداً حتى ما عاد أحد يتذكر تاريخ قدومه. كانت بضاعته محدودة دائماً لأنه يكاد لا يسدّد أبداً أي مالٍ لمزوّديه بالبضائع، والنساء يرغبن عن الذهاب إلى هناك لأنه سيرمقهنّ بعينين شبقتين احمرّت حوافّهما ولن يقول شيئاً. هو ذا الآن، جالساً على كرسيه ذي القوائم الثلاث، يهشُّ الذباب. ترجّلَ سوسيمو من العربة، وبوجهٍ اعتراه النفور، بدأ ينتقي بضعة أشياء من تحت الطاولة[٦٦] بغتة، رأى ستيفنسن، بزاوية عينه، طيف رجل آخر يجلس تحت شجرة خبز فيؤها مرقّط بضوء الشمس. تعرّف إليه من الفور، ولكن لم تبدرْ عن الرجل الجالس أي علامة ترحيب.

"سيّد بيكر؟"، سأل ستيفنسن.

"باعتقادي، يتوجّب عليّ شكرك"

"تشكرني، سيد بيكر؟ علامَ؟"

"على معونتك في تطهير هذه الجزيرة الملعونة. على وضعك حداً لفجور أعمالهم في البلدة"

"عمَّ تتحدّث؟"

"تكلّمنا عن النار تلك الليلة، في حُجراتي. عن النار

المطهّرة التي تنذر بالنيران الآتية. كنتُ أعرف أنك ستفهم. فأنت تكرههم أيضاً"

"أكرههم؟ ماذا تقصد؟"

"أنت تسأل نفسك لماذا عليك أن تشقى وهم يضحكون ويشربون ويَزْنون. تسأل نفسك لماذا على رئتيك أن تتلفا، في حين أنهم - هؤلاء الذين يكادون لا يفكرون ويجرّون حيواتهم البائسة ماضين أبعد وأبعد عن الله - يستطيعون أن يتنفّسوا بسهولة. أنت تكرههم أيضاً، لأنك تتملّى ذلك اللحم المعافى وأنت تعلم أنه موجود هناك ليُغويك بالرغبة فيه. وأنت تعلم أن هذا المكان لا يمكن تطهيره من دون تدمير"

"أنت مجنون"

"كلا، على الإطلاق. إرادتك أقوى مما تظنّ، وعندما تعترضها التحديات فبمستطاعها أن تجترح الأعاجيب. لقد شُوهدتَ في الحانة قبل نشوب الحريق"

"ذلك هراء، لقد كنتُ في منزل الرئيس"

ندّتْ عن السيد بيكر ضحكة قصيرة مبتورة، وقال من جديد: "أجل، أعرف. لكن، ومع ذلك شكراً لك. أقدّر

مساعدتك كثيراً"

ومن دون التفوُّه بكلمة أخرى، سارع ستيفنسن بالرجوع إلى العربة والعرق ينضح منه ويجري على وجهه ورقبته، وانتظر أن يفرغ سوسيمو من تحميل الأغراض. لاحقاً، بهبوب النسيم الطفيف عند انطلاقهما مبتعدين، لم يشعر بتاتاً بأي ارتياح.

في الصباح التالي، كانت فاني لا تزال نائمة عندما استيقظ ستيفنسن. ارتدى ملابسه وخرج عند شروق الشمس، والأشعة الساخنة الأولى تضرب جذورَ الشجيرات حول الشرفة وغصونَها الأخفض، تاركةً ما تبقى تلفُّهُ العتمة. كان الهواء مُذهَّباً بالغبار.

سمع خشخشة بين الأوراق، ثم لاحظ الجسم البدين لتوتاي يظهر للعيان ويقف جامداً بلا حراك في عرض الطريق، في مواجهته. ناداه ستيفنسن: "صباح الخير"، لكن توتاي لم يردّ. ولوهلةٍ، وقف الرجلان ينظران كلاهما إلى الآخر في الضياء الذي راح يعمُّ الأرجاء. ثم تكلم توتاي: "توسيتالا، أنا أعرف القصة"

"القصة، توتاي؟"

"قصة ما حدث على الجبل، وقصة ما حدث في الحانة. ليست إلا قصة واحدة، وتوسيتالا يعرفها أيضاً"

"لا أعرفها، توتاي. اروِها لي"

"تبدأ القصة كواحدةٍ من القصص التي ترويها لنا، توسيتالا. إنها تبدأ بوصول رجلٍ إلى جزيرة. يجلب الرجل أشياء كثيرة من بلاده - سريره، مائدته، كتبه، زوجته - ويشرع في بناء منزلٍ لنفسه. لكن الأشياء التي يجلبها معه لا تصلح للجزيرة، أو لربّما الجزيرة لا تعجبها تلك الأشياء. وهكذا يغدو سريره رطباً وغير صحيّ، ولا برَكة في طعام يُولَم على مائدته، وتأبى كتبه أن تكلّمه، وتتناءى زوجته عنه وتفقد جاذبيتها. وهكذا يبدأ الرجل باشتهاء أشياء أخرى ليست له بل هي أشياء الجزيرة. إنه لا يقول ذلك، لكنه يحلم في الليل بكلِّ ما لا تطاوله يمينه: مكان للنوم في دَعة، جسد ليس ضعيفاً، زوجة تمنح المتعة وتتلقّاها. كل هذه الأشياء موجودة على الجزيرة وهي لهُ في أحلامه لكنه لا يجرؤ على أخذها في الصباح. والتَّوق[٦٧] يُمرضه ويثير غثيانه. إلى أن يبلغ التوقُ من القوة مبلغاً ينفصل فيه عن الرجل لينطلق وحده ذات يوم، مثل صياد، من دون

أن ينتظر الصباح. إنه يصطاد طوال الليل حتى ينام، بعد أن يظفر بفريسته، فلا يعرف الرجل عنها شيئاً. وذات يوم يرى الرجل فعائل تَوقه، يرى الأفعال الغادرة ومجرى الدم، لكنه يرفض تصديقها... "أنا سيد رغبتي"، يقول الرجل ويغمض عينيه. وهكذا تستمر تلك الأفعال، ولا ينفكّ الرجل رافضاً أن يرى، ريثما يكتشف ذات صباح أنه ما عاد يحلم بتَوقه، بل إن توقَه يحلمُهُ. إنه في حلم على قمة جبل، وفي الحلم، يرى فتاة يافعة لا يستطيع تَوقه أن ينساها. فينقضُّ على الفتاة اليافعة ويُكرِهها ليقضي منها متعته. وحين تستصرخ يقتلها. وعندئذ يستفيق، فيقول له تَوقه: لقد أحسنتَ صنعاً، توقّفِ الآن عن التفكير في الأمر. وليلة بعد ليلة تَوقُ الرجل يستدرجه فيُخرجه من البيت، ويأخذه إلى أمكنة غريبة ويطلب منه أشياء ينساها في الصباح، ريثما تغدو الأحلام بحدّ ذاتها شيئاً لا يُطاق ولا يعود الرجل راغباً في النوم. تلك هي القصة، توسيتالا. لقد قتلتَ ابنتي، وأضرمتَ النار في الحانة حيث احترق ابني حتى الموت، والآن سوف أضع حدّاً لروايتك الأقاصيص. سوف أقتلك"

رأى ستيفنسن مديةً تلتمعُ إذ مسّها ضياء الشمس، ومن دون تفكير، انطرح على أحد جانبيه عندما اندفع توتاي صوبه. للحظةٍ ضغط الوجه المستدير لتوتاي على وجهه كأنه موشك أن يقبّله، ثم لمّا حاول ستيفنسن أن يرفع ركبته صدًّا للمعتدي عليه، سمع صوتاً أشبه بهمسة طويلة، وأنيناً، ثم تهالك فوقه توتاي بكاملِ ثقله. اختلجتِ الأطراف السوداء الضخمة ثم همدتْ، فشقّ على ستيفنسن أن يتنفّس. ببطء، وبجهدٍ جهيد، سحب نفسه من تحت جثمان توتاي. ثم استلقى في الغبار، بصفير صدره[٦٨]، إلى جوار الرجل الميت الذي كانت عيناه لا تزالان مفتوحتين. بدأت بركةٌ من دماء توتاي تمتدّ نحو ستيفنسن، وأثناء محاولته النهوض، تراءت له بركة الدماء كأنها تزداد ألقاً. شعر أن قواه كلّها قد خارت. لم يحرّك ساكناً حتى وصلت نداوةُ الدم إلى يده.

هذه المرة، انقضى أسبوع بأكمله قبل أن يستردّ كامل وعيه. أخبرته فاني في ما بعد أن سوسيمو قد عثر عليه في الخارج فحمله إلى سريره. استُدعي الدكتور فانك، وكبيرُ القضاة أيضاً، وبينما انهمك الأول برعاية المريض، نقل

الثاني في عربة جثةَ توتاي لتدفنها عائلته. لم يبدُ إجراء تحقيق أمراً ضرورياً، فما حدث كان واضحاً للجميع. لقد حاول توتاي أن يهاجم ستيفنسن في نوبة جنون سببها الفاجعة بعد خسارة اثنين من أطفاله، فوقع على سكّينه. "يُستحسن تجنب إشاعة النبأ"، قال كبير القضاة. شكرتْه فاني من صميم قلبها.

عندما استفاق ستيفنسن، وفي فمه طعمٌ مَلْح، وفي خاصرته اليسرى ألمٌ عميق، لم يستطع أن يتبيّن هل هو في الليل أم النهار. كان ضوء خافت يتسرب خلل المصاريع. فخاله القمر للوهلة الأولى، ثم سمع أصواتاً فأدرك أنه وقت النهار من غير بد.

دخلت فاني حاملةً طستاً ومنشفة، وجلستْ إلى جواره لتغسل وجهه. كانت هناك بضع قطيراتٍ من رذاذ الدم الذي سعله عالقةً على وجنته في لحيته التي لم تُحلَق منذ أيام. نظر إليها بامتنان، فهمّت بغسله.

"ها أنت مستيقظ. لقد غططتَ في نومٍ طويل جداً"

"هل قلتُ شيئاً؟"

"كنتَ تسعل سعالاً فظيعاً، وفقدتَ الكثير من الدم.

لم أكن أسمح لك أن تتكلم؛ بمحاولة الكلام كان سعالك يشتدّ أكثر. مرة أو اثنتين قلتَ اسمي. واسم توتاي. كنتَ تناديه"

"ما من شيء آخر؟"

"في لحظة من اللحظات خيّل إليّ أنك ربما تصلي، كنت تهمهم كلمات كأنك ترتّل شيئاً. لكنني لم أستطع تبيّن ما كانتْهُ. يا عزيزي المسكين، كنت خائفة عليك كثيراً" وأنزلتِ الطَّست عن السرير، ثم ضمّت يديه كلتيهما.

نام هنيهة، ولكنه كان شكلاً مختلفاً من النوم، منعشاً وأهدأ بكثير من أي نومةٍ أخرى استمتع بها منذ وقت بعيد. فتح عينيه فأدرك الآن أنّ الليل قد حلّ. كان الهواء عليلاً. بغتة رأى شخصاً واقفاً عند قدم السرير. عند محاولته أن ينهض، أدرك مَن هو، ولكنه تداعى على المخدّات.

"ماذا تفعل هنا؟"

"زيارة ودية ليس إلا"، قال السيد بيكر. "فكّرتُ أن آتي وأرى بنفسي بهجةَ الحياة التي تتحدّث عنها دائماً. لكن ما أراه هو الهالاتُ حول العينين والشعرُ المبتلّ بالعَرق

وتقطُّعُ الأنفاس والمناديلُ الملطَّخة بالدم. ولا يسعني إلا تخيُّل الليالي الطوال المترامية، عندما لا نأمة للريح وكلُّ ما تستطيع سماعه هو الطنين الثاقب للبعوض. لو كنتُ في مطرحك، يا صديقي، فلستُ أدري هل سأكون قادراً على مواصلة هذه الحياة. من أجل ماذا؟ هذه عاقبة الخطيئة وأكلافها، وهي تُسدَّد من دون أي رجاء في الخلاص. لو كنتُ في مطرحك، لوضعتُ حداً لكل ذلك، فشتمتُ الله ومتُّ"

لبث ستيفنسون ساكناً كل السكون، عارفاً أن أقلّ حركة ستهيّجُ السعال من جديد. تكلم ببطء مقصود.

"أعلم أن ساعة أجلي قد دَنَتْ، ولكنها لن تستوقفني. إذ ما هي الغاية؟ قد يستوقفنا أيضاً عملُ أسناننا أو آلياتُ مشيتنا. أجلي ماثلٌ، وسوف يبقى ماثلاً على الدوام، وليس في نيتي تزجية أبهى ساعاتي ناظراً من فوق كتفي لكي أرى الوجهَ الجليدي للموت"

"أظنُّ أنك تعرف ما فعلتَه"

"... فعلتُه؟"

"عهودك التي أوفيت. يدك بوصفها أداةَ الله. جندياً في

جيش الرب. إعجابي بك كبير"

"أنت لا تعرف ما تقول"

"بل أعرف، وأنت تعرف أنني أعرف. الجسدُ الحي قصاصهُ الجسدُ الحي، وبالدم يُجازى الدم. لم تكن هناك أي خطيئة في أعمال قتلك... الفتاةُ، الشقيقُ، الرجلُ العجوز، كانوا جميعاً أعداء القضية الحقيقية. فماذا في الأمر لو كان القتلُ إرواءً لتَوقِك؟"

"لم أقتلْ أحداً. لا أسمح لك أن تقول ذلك"

"ما الفرق لو كانت يدك أو يدي، أو القدَر إن أحببت؟ لقد رغبتَ فيها، وكان على توقِك أن ينالها، وهكذا همَمْتُ بها من أجلك. كنتَ تمقتُ حشود السكارى الكافرين لأنهم كانوا مفعمين بالحياة، في حين أن حياتك أنت تنحسر وتضمحلّ، فأجهزتُ عليهم لكي أمتعك. الفعلة ارتُكبت، وكانت شهوة الجريمة شهوتك. نحن جميعاً شخصيات في القصة نفسها، كما قلتَ في وقتٍ ما، وأدوارنا قابلة للاستبدال في ما بيننا، حتى دور الراوي نفسه. وأنت تعلم، بوصفك الراوي، أن ما تستحضره الرغبةُ في أحلامك يستحيلُ إلى بعض الغبار الذي نلمسه

والهواء الذي نراه. فلماذا ترفض تصديق ذلك؟ لماذا لا تتقبّله؟ ألا تتذكر *Religio Medici* [ديانة طبيب][٦٩]، وذلك المقطع الذي أحببتَهُ حباً جمّاً؟"

تناول السيد بيكر كتاباً من رفّ كتب ستيفنسن بأريحيةٍ كاملة كأن هذه الغرفة غرفته. فتح الكتاب على صفحة مؤشّرة بقصاصة ورق صفراء، وقرأ:

> لا يلزمنا البحث عن سَنة أفلاطون[٧٠] لكي نرى أنفسنا مرة أخرى: ليس كلُّ امرئ نفسَه فحسب: كم كان من ديوجين، وكم من تيمونس، لولا أنّ قلةً حملت هذا الاسم أو ذاك: يعودُ البشر إلى الحياة مرة ثانية، والعالمُ الآن مثلما كان في غابر العصور؛ لم يكن هناك أحدٌ آنذاك، ولكن منذئذ، ثمة أحدٌ يوازي كلَّ إنسان، وهو، إذا جاز القول، نفسهُ التي بُعِثت حية.

حاول ستيفنسن أن يرفع نفسه عن مخداته مرة أخرى، ولكن ذلك اقتضى جهداً جباراً. فتهالك من جديد، مغمضاً عينيه. وضع السيد بيكر بهدوء الكتابَ إلى جوار سريره.

"أما الآن وقد فهمتَ هذا، فلا لزوم لعودتي مرة

أخرى. وداعاً يا أخي"

عندما فتح ستيفنسن عينيه من جديد كان السيد بيكر قد اختفى.

استعاد ستيفنسن من العافية ما يكفيه للجلوسِ في السرير، وبعد بضعة أيام، للتمشّي في أرجاء البيت والحديقة. سار في الممشى الذي بدا - رغم جهود سوسيمو - أنه لن يتخلص أبداً من النباتات: الجذور والمدادات[٧١] التي تعاود نموها بعد أن تُقْطَع من الفور تقريباً، والثمار المتساقطة التي تبعثر البذورَ البرّاقة حين يتفتّق جسمُها كأنها جريحة، والأوراق الكبيرة التي تتناقلها أرتالُ النمال من برّيةٍ إلى أخرى. اجتاز بستانَ أشجار الخبز وخرج من أفيائه إلى ضياء الشمس. وهنا توقف وحدّق في ما كان يدعوها جزيرته وإحساسٌ غريب بالراحة يساوره. كان هناك حصان يقف وحده وسط العشب الطويل يهشُّ الذباب بذيله، وخلفه كان الدرب يلتفُّ أحمرَ كندبةِ جرح عالياً على جانب الجبل. "الموت للعصب البصري"، ردّد ستيفنسن لنفسه، ولكن من دون طائل لأن المنظر كشف عن مكنوناته كلفافة مخطوط، فأحسَّ أنه مجبَر على قراءة

ما كُتب عليها: الألوان والأشكال والنماذج والمتواليات التي ترجمها إلى كلمات بطريقة غير واعية تقريباً، مثل رجل يعجز عن إيقاف حديثه مع نفسه.

حاول ألّا يفكر في ما قد حدث. هنا، في القيظ الأخضر، كلّ ما هو ممنوع لا يتطرّق إليه أحد. كان الشر محظوراً لا يُباحُ به، وليس له وجود بين الكلمات. كان مكتوباً على حجارة إدنبرة - بالأحرف القوطية التي اغتبط بها السير والتر سكوت في شبابه كثيراً -Thou Shalt Not[٧٢]، تحذير العهد القديم، وكانت عينا ستيفنسن أثناء تجواله عبر المدينة تقعان دائماً من دون سابق قصد على الغوايات المحرَّمة، والخطايا المفصَح عنها ليعرفها الجميع، معروضةً كما في مرآة قاتمة، مثل متعةٍ وُصِمت بالشذوذ، حتى أمام أولئك الذين لم تكن تلك الخطايا قد خطرتْ لهم بعد.

بعد أسبوع أو نحوه، كان قد عاد إلى طاولة عمله يكتبُ. كان يشعر بحماسة غريبة، وإن كان القلق يشوبه، وكأنه قد استفاق من حلم كريه لا يستطيع أن يتذكّره. حاولت فاني إقناعه بملازمة السرير، على الأقل شطراً من النهار، ولكن

من دون جدوى. أخبرها أن القصة الجديدة تكتملُ بسرعة كبيرة، وعليه مجاراتها وإلا أفلتت منه إلى الأبد.

ظلّ يعمل طوال الصباح، وبعد الظهر أحضر عمله الصباحي إلى فاني وسألها هل لم يحسن فعله. صوتُ السيد بيكر، إيماءاتُ الفتاة المسكينة الميتة، الغرفُ المستأجرة الفظيعة بقاطنيها الغريبين، حتى أحلامهُ المقزّزة... قد حُوِّرت وأدرِجت ضمن القصة، وكان عالم بحار الجنوب قد تجمّد الآن على شكل منظر طبيعي شماليّ أشجارُ اللهب فيه هي الكنائس، والجداولُ هي الشوارعُ الحافلة بالحياة. موافقة فاني المتحمّسة المليئة بالإعجاب أتتْ بمنزلة التصديق على عمله ومكافأته.

والآن كان الردُّ على الرسائل واجباً؛ لا مراسلات العمل - لأنها أرجِئت إلى وقت لاحق - بل الردُّ على الرسائل الطويلة اللطيفة لأصدقاء بعيدين، كان قد استلمها منذ يومين فحسب، ولا تزال تتوهّج في ذاكرته. فرّغ نفسه للكتابة، وانسابت الساعات رويداً رويداً.

هبط إلى الطابق السفلي عند مغيب الشمس، واستحثَّ فاني ممازحاً للخروج من المزاج الكئيب الذي دهمها

وكانت تقول إنها لا تستطيع منه فكاكاً، وتكلّم عن جولة قراءات ومحاضرات في أميركا كان يهفو إلى الشروع بها "ما دمتُ أشعر أنني على خير ما يرام"، ولعب الورق معها ليذهب عنها سوادَ كآبتها.

قال إنه جائع، ورجاها أن تساعده في إعداد سلَطة لوجبة العشاء، واحتفاءً بالوليمة الصغيرة أتى من القبو بزجاجة نبيذ بورغَندي[٧٣] معتَّق. كان يساعد فاني على الشرفة ويتحدث بمرح، عندما وضع يديه على رأسه فجأة وصرخ: "ما هذا؟"

خرَّ على ركبتيه منهاراً بالقرب منها. صاح عالياً: "هل تغيّر وجهي؟"

استغاثت فاني صارخةً فأتى سوسيمو راكضاً. تكاتفا ليساعداه على الدخول إلى الصالون الكبير، ومدّداه على الكرسي ذي المسندين الذي كان في ما مضى كرسيَّ جدّه. انحنت فاني لتقبّله. كان قد غاب عن الوعي توّاً.

استُدعي الدكتور فانك، فاكتفى بالنظر إليه وهزّ رأسه؛ لقد عَبَر ستيفنسن إلى حيث لا شيء ولا أحد يستطيع تقديم أيّ عون له أو الوصول إليه[٧٤].

الهوامش

١ تنبثق من جذوع هذا الشجر الاستوائي الضخم جذورٌ كبيرة متشابكة، وقد يترجم اسمه المعرَّب إلى الأيكة الساحلية أو القرم.

٢ ذبابة الرمل حشرة لا يتجاوز حجمها ثلث حجم البعوضة العادية، وتنقل أمراضاً مختلفة كاللليشمانيا.

٣ تقع ساموا في المحيط الهادي شرق أستراليا، والمدينة الكبرى في أرخبيلها هي آبيا.

٤ كبرى الجزر في أرخبيل آخر يقع بين نيوزيلاندا وهاواي.

٥ لمفردة الطريق، المؤنثة في الترجمات العربية للعهد الجديد، معانٍ مختلفة. إنها كناية عن المسيح، ففي **إنجيل يوحنا** يقول يسوع: "أنا هو الطريق والحق والحياة"، كما سمّي المسيحيون "أصحاب الطريق" في عصور مضت. إرساليات الكنيسة المشيخانية التي سادت اسكتلندا، وعلى غرار شقيقاتها من كنائس شتى، رأت بانتهاجها الطريق الحقيقي - استناداً إلى ما يرد في ختام **إنجيل متّى** - وجوب ذهاب المرسلين مبشّرين

جميع أمم الأرض ليتلمذوهم ويعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.

٦ قرية صغيرة جنوب آبيا. بدأ ستيفنسن رحلة بحرية طويلة انطلقت من سان فرانسيسكو سنة ١٨٨٨ وجابت به جنوب المحيط الهادي، زار خلالها الكثير من الجزر، ليستقر في فايليما منذ نهاية ١٨٨٩، ويمضي فيها سنواته الأخيرة.

٧ قد تستخدم هذه العبارة الاسكتلندية الملتبسة المعاني كإشارة إلى أصالة النسب أو السلالة في مناطق يغلب على طقسها البرد.

٨ تُعرف ثمرة هذه الشجرة الاستوائية باسم آخر أطلقه عليها كولومبوس هو فاكهة الملائكة.

٩ مدينة فرنسية حالياً تقع شرق جبال البيرينيه على الحدود مع إسبانيا، زارها ستيفنسن في شبابه خلال رحلاته في جنوب فرنسا.

١٠ شقائق البحر (أو الشقّار أو شقائق النعمان البحرية): حيوان بحري رخوي من اللواسع السامة، مجسّاته ولوامسه كثيرة وشكله أشبه بالزهرة، يعيش في المياه الدافئة الضحلة، وتكثر مصادفته في جزر جنوب المحيط الهادي، وخصوصاً سواحل غينيا الجديدة.

١١ تعرف هذه الزهرة باسم الختمية في حوض المتوسط، وألوانها أكثر حرارة في المناطق الرطبة والاستوائية.

١٢ بعد صدور رواية **كاتريونا**، كتبت عدد من الصحف الإنكليزية

أن ر. ل. س (روبرت لويس ستيفنسن) القديم قد عاد. كتبت صحيفة ليفربول بوست في أيلول/ سبتمبر ١٨٩٣: "كاتريونا تقنع المرء بأن [مخيلة الكاتب] تعثر وسط أهله في شرقي اسكتلندا، لا وسط همَج ساموا، على المواضيع التي تلائم عبقريته على أتمّ وجه ممكن"

١٣ قماش يُصنع يدوياً من مسحوق لحاء توت الورق أو ألياف أشجار أخرى في جزائر المحيط الهادي، ويُستخدم في صناعة الأغطية والملابس، كما يعلّق للزينة على الجدران.

١٤ التياريه زهرة بيضاء نجمية الشكل، تُعرف أيضاً باسم غاردينيا تاهيتي.

١٥ كان هذا الشكل من التنانير والأفران شائعاً في جزر جنوب المحيط الهادي، حيث يحفر كل تنور على كتف تلة أو في جانب حفرة، ثم تُبنى له مدخنة ويُرصف قاعه بالأحجار، ليستخدم في الشوي والخَبز.

١٦ north–country brogue: لهجة بلاد الشمال التي قد تميز الأيرلنديين والاسكتلنديين عند التحدث بالإنكليزية، والتوصيف آتٍ من حذاء brogue الذي كان الفلاحون الشماليون ينتعلونه.

١٧ shadow reflection: اعتمدنا هذا التعريب الذي استخدمه العلامة عبد الله العلايلي.

١٨ المومو فستان فضفاض ألوانه زاهية عادة، يُرتدى في هاواي والجزر المجاورة لها، وخصوصاً في مناسبات مثل الأعياد والأعراس.

١٩ يجهّز مشروب الكافا من جذور نبات يحمل الاسم نفسه وينتمي إلى عائلة الفلفل، وهو يُشرب في الاحتفالات والأعياد في جزر جنوب المحيط الهادي.

٢٠ بقلة عريضة الأوراق تؤكل جذورها الدرنية النشوية في المناطق المدارية.

٢١ شجرة الخبز شجرة استوائية ضخمة دائمة الخضرة ثمارها ثقيلة كبيرة ذات لب نشوي، وهي تُخبز وتُشوى.

٢٢ شجرة اللهب إحدى أجمل الأشجار دائمة الخضرة في المناطق الحارّة، أوراقها ناعمة وأزهارها صارخة الصفرة أو حمراء نارية، ظلالها وارفة.

٢٣ Romance: آثرنا التعريب المؤنث "الرومانس"، وهي نوع من التأليف الشعري تاريخه مختلف عليه، واستخدامه كمصطلح إشكاليٍ أو ملتبس أحياناً، وقد غلب عليه النثر مع ظهور الرواية وتوطّدها في الأدب، فسخر اثنان من روادها، هما فلوبير وجيمس جويس، من كتّاب الرومانس الذين مال معظمهم إلى استخدام قصص مشهورة أو فلكلورية أو أساطير أو ملاحم شعبية، لتزخر أعمالهم بغرائب الخيال وقصص الحب في عوالم الفروسية والأرستقراطية، كما عُنيت بالخفيّ والعجيب واللاعقلاني والمغامرات (كما الحال في جزيرة الكنز). في العصر الحديث، وُصِمت الرومانس بالسهولة والنمطية وبالنوع الأدبي الأدنى، إذ اعتبرت عملاً مكتوباً للتسلية، يستدعي ما هو بعيد منفصل عن العالم الحقيقي للكاتب، ولعلّ هذا أحد الأسباب التي دفعت بعضهم إلى اعتبار ستيفنسن كاتباً للفتيان والناشئة، أو كاتب رحلات

ومغامرات، فاستبعده ليونارد وولف من مختارات الأدب الإنكليزي، وعلّق خورخي لويس بورخيس قائلاً إن من حُسن حظ ستيفنسن نجاته من حفاوة الحداثويين.

٢٤ علبة الورق النشّاف المستخدم في تجفيف الأوراق المسوّدة من فائض الحبر.

٢٥ عُقال الكاتب (قد يُعرَّب إلى معص النسّاخ وكتّاب العرائض): تشنج مؤلم عصبي المنشأ أو نفسيّ، يصيب أصابع اليد وعضلاتها، وينجم عادة عن الإجهاد الذي يسببه الإفراط في الكتابة.

٢٦ بعض الركائز في بناء هذه الرواية تستند إلى المراسلات المتعددة بين ستيفنسن وصديقه هنري جيمس، لعلّ أبرزها شخصية السيد بيكر من تونغا. لن نفسد لذّة السرّ. على أي حال، بوسع القارئ - إذا عاد إلى تلك المراسلات - أن يرى البراعة التي استبطن فيها مانغويل ستيفنسن، وكيف تلاعب ببعض ثيماته الأساسية مثل ثيمة القرين التي تتجلّى أنصع أمثلتها في رواية سيّدُ بالانتري التي اعتبرها نابوكوف وبريشت وفالتر بنيامين تحفة ستيفنسن.

٢٧ Lord God of Hosts: إحدى التسميات الغامضة لله في التوراة. نقرأ في الأصحاح ١٢ من سفر هوشع في العهد القديم: "الربُّ إله الجنود اسمهُ يَهوه"، وإله الجنود هو إله الحرب، وجيشه من الرجال أو الكواكب والملائكة المصوَّرة كأجناد السماء.

٢٨ الجملة الأخيرة مقتبسة من الأصحاح الأول من رسالة يعقوب في العهد الجديد: "كونوا عاملين بالكلمة، لا سامعين فقط،

خادعين نفوسَكم"

٢٩ الرواية المحروقة في هذه الحادثة هي المسوّدة الأولى من **دكتور جيكل ومستر هايد** (طُبعت في ما بعد تحت عنوان **الحالة الغريبة للدكتور جيكل والمستر هايد**). مذهولاً، وصف لويد أوسبورن السرعة الخارقة التي كُتِبت بها هذه الرواية، بعد تلصصه من الباب الموارب على زوج أمه المريض المحموم. ذكر ستيفنسن أنه قد مرّن "بنَيّيه" على فن الأدب، فراحوا يترددون على مناماته ويروون له حكايات مدهشة إحداها **دكتور جيكل ومستر هايد** التي يقتل فيها مستر هايد بغير ذنب فتاة صغيرة، والبنيون أقزام طيبون يرتدون ثياباً ضيقة بنية اللون سكناهم المزارع الاسكتلندية، ويضطلعون بالتدابير المنزلية في الليل وأهل البيت نائمون.

٣٠ التعبير المستخدم هنا هو الحكايات الخرافية الممتعة والخلّاقة وذات المغزى، على منوال **حكايات إيسوب** أو **كليلة ودمنة**.

٣١ جون نوكس (١٥١٣-١٥٧٢): عالم لاهوت وكاتب اسكتلندي تزعّم حركة الإصلاح البروتستانتي، وهو مؤسس الكنيسة المشيخية في اسكتلندا. دعا إلى إعدام ماري، ملكة اسكتلندا، التي اتهمت بقتل زوجها. وفي جملة السيد بيكر تلميح إلى كتاب ستيفنسن **دراسات مستفيضة عن الرجال والكتب** (١٨٨٢) الذي تضمن دراسة مطوّلة عنوانها "جون نوكس والنساء"

٣٢ اعتمد ألبرتو مانغويل في هذه الجملة ترجمة كينغ جيمس الإنكليزية للكتاب المقدس (القرن السابع عشر)، واعتمدنا ترجمة فان دايك العربية. ترد هذه العبارة كآية في الأصحاح

الخامس من رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس، وتتماشى تفاسيرها مع تصورات السيد بيكر، فبولس الرسول يتوجه بالحديث إلى العبيد ولا ينصحهم بالثورة على أوضاعهم المزرية، بل يطالبهم بكسب رضا سادتهم، إذ على العبد محبة سيده وخدمته بقلب مخلص من دون مراءاة، لأن هذه الخدمة من أجل الرب. وهكذا يصير العبيد معلمين لسادتهم، ويفوزون بوعود الخير الأبدي.

٣٣ ترد "رجل الله" مراراً في الكتاب المقدس وبمعانٍ مختلفة. لعل استخدامها هنا إشارة إلى حركات الإصلاح الدِيني المسيحية التي رأت في "رجل الله" الرجل الذي يحتاج إليه الله دائماً ليستخدمه عبر الروح القدس في تحقيق مشيئته، ورجال الله قلة على الدوام في مختلف العصور.

٣٤ مصير كل روح بعد الموت مرهونٌ بالإله الذي عبدَتْه (الشمس أو القمر أو الريح)، فتذهب إلى السماء وراء الغيوم، أو إلى البراكين، أو تحت الأرض في السهول الجرداء حيث الأرواح ناعسة دوماً وطعامها الظلال، أو إلى أرض خفية في جزيرة بعيدة تقع في الغرب، أو إلى بحر آخر وراء أقاصي البحر. هناك، في جزر جنوب المحيط الهادي، مواضع يُعتقد أن الروح تقفز منها إلى البحر قفزتها الأخيرة. وفي هذه المواضع، تنبت أشجار بندق أو جوز تتجمّع الأرواح على غصن من غصونها الخضر لتسرّع كسره فتتهاوى معاً وتسبح معاً خوفاً من الضياع في المتاهة التي تفصل عالم الأحياء عن عالم ما بعد الموت. ثياب الحِداد بيضاء عادة، والميت يُغسل بالماء المَلْح المسمَّى "ماء الغفران"، كما توضَع في سرته حبة ملح، ويفصل بين موته ودفنه يومان أو ثلاثة، لأن الروح قد

تعود إلى جسدها في هذه الأثناء، فيعاود أقرباؤه وأصدقاؤه وضع أيديهم على صدره ليتأكدوا مراراً من عودة قلبه إلى الخفقان.

٣٥ عمل شهير للروائي والمسرحي والشاعر الاسكتلندي السير والتر سكوت (١٧٧١-١٨٣٢). اعتبرت **آيفانهو** رواية تاريخية، وعلى غرار الروايات التقليدية آنذاك، طبعت في ثلاثة أجزاء سنة ١٨٢٠؛ سماها مؤلفها رومانس، وتدور أحداثها حول مغامرات السير ويلفرد آيفانهو في القرن الثاني عشر، المدافع عن الملك ريتشارد قلب الأسد بعد رجوعه مهزوماً من ثالث الحملات الصليبية ودخوله السجن على يد غرمائه. تأسطرت شخصية روبن هود كنبيلٍ مرح خارج عن القانون في هذا العمل الذي كان له أثر بليغ في انبعاث الرومانس وتزايد الاهتمام بالعصور الوسطى في الأدب الإنكليزي خلال القرن التاسع عشر.

٣٦ كان توماس ستيفنسن، والد ر.ل. ستيفنسن، مهندساً وسليل عائلة من المهندسين، وأسهم في تشييد شبكة المنارات البحرية على سواحل اسكتلندا. وعلى شاكلته، بدأ ابنه الوحيد روبرت دراسة الهندسة في جامعة إدنبرة، ثم انتقل إلى المحاماة التي لم يزاولها، قبل أن يقرر في الحادية والعشرين التخلي عن الدراسة الجامعية ليصبح كاتباً ويعود عليه قراره بخصومة مع أبيه.

٣٧ بطل قصة ستيفنسن **عفريت الزجاجة** بحّار من هاواي يسافر إلى سان فرانسيسكو ويتجول بين منازل أثريائها، فيصادف هناك عجوزاً حزيناً يخبره أن سبب أحزانه التي لا تنقطع عفريت يعيش عنده في زجاجة سحرية. الذي يمتلك الزجاجة يلبي

العفريت كلَّ أمانيه، ولكن إذا أخفق المالك في بيعها قبل موته، فإن روحه ستحترق في نار الجحيم إلى الأبد. يشتري البحّار الزجاجة بكل ما لديه من مال، شريطة أن يبيعها بثمن أقل من ثمن شرائها، ولكنها تعود إليه مراراً كلما حاولَ التخلص منها، ويتّعرض بسببها لأحداث أخرى بعد رجوعه إلى جزيرته هاواي.

٣٨ Night Hag: مخلوق خيالي في قصص الأطفال والقصص الفلكلورية الاسكتلندية، كانوا يهددون به الأطفال الذين يتملصون من النوم باكراً؛ ترجمنا اسمه إلى "ساحرة الليل" ("الساحرة العجوز" في روايات أخرى)، وهي تشير كذلك إلى روح شريرة تزور النائمين في منتصف الليل، فتجثم على صدورهم وتمتطيهم ككابوس وتوشك تخنقهم، فيخالون عند استيقاظهم، خائري القوى وبأنفاس مبهورة، أنهم مشلولون.

٣٩ Petroglyphs نقوش ترسم في الصخور بالحفر أو الخدش أو النقر، تختلف عن رسوم الكهوف. هناك مواقع عدة تتميز بهذه النقوش في ساموا، كما في أنحاء العالم، وهي أحياناً - تبعاً لهشاشتها أو طريقة تنفيذها - لا تصمد كثيراً أمام الزمن وتقلبات الطقس.

٤٠ في البداية استُخدم هذا الجهاز الطبي البسيط لتخفيف السعال بالأفيون، وطوّره في القرن التاسع عشر طبيب اسمه نلسن ليصبح إنبيقاً من الزجاج أو الخزف، شبيهاً بدوارق العطّارين أو أباريق النبيذ، ومزوّداً أحياناً بأنبوب لتُستنشق عبر بخار الماء المساحيق والأعشاب الطبية المنقوعة لعلاج المصدورين.

٤١ hookah أحد الأسماء الإنكليزية للنرجيلة، أصله العربي

"الحُقَّة" ينسج ستيفنسن في مجموعته القصصية **ليالي ألف ليلة الجديدة**، على منوال "الليالي العربية" ("**ألف ليلة وليلة**" في ترجمة ريتشارد برتن). وفي الفصل الثاني من روايته **الأمير أوتّو**، جعل الأمير يلعب دور هارون الرشيد.

٤٢ السير هنري رايبِرن (١٧٥٦-١٨٢٣): رسام بورتريه اسكتلندي كتب ستيفنسن في مطلع شبابه مقالة مطولة حول بورتريهاته. أندرو لانغ (١٨٤٤-١٩١٢)، شاعر وكاتب اسكتلندي عرف بجمعه القصص الفلكلورية والخرافات الاسكتلندية، صديق ستيفنسن، وقد كتب كلاهما عن الآخر مقالات وقصائد، وبينهما عدد من المراسلات.

٤٣ كان والد ستيفنسن قد اشترى لدارِته في إدنبرة بعض قطع الأثاث التي صممها وليام برودي في القرن الثامن عشر، وهي معروفة بجودتها. كان برودي صانعاً ذاع صيته في تصميم الخزانات والأقفال، ثم تكشف لاحقاً أنه زعيمٌ لعصابةٍ من اللصوص كان يقودها لسرقة منازل الزبائن الميسورين، بعد نسخه مفاتيحها في قوالب من الشمع. شُنق برودي في إدنبرة على منصة إعدام كان قد صمّمها بنفسه. يقال أن الحياة المزدوجة للسيد برودي، بتباين نهاراتها عن لياليها، هي إحدى مصادر **دكتور جيكل ومستر هايد**.

٤٤ جول بارِبه دوريفيلي (١٨٠٨-١٨٨٩): قاص وروائي وناقد فرنسي عرف بأدب الجريمة والألغاز. صدر كتابه **الشيطانيات** سنة ١٨٧٤، وكلٌّ قصة فيه تصور امرأة تنتقم أو ترتكب جريمة قتل. علّق الكاتب على الضجة التي أثارها كتابه قائلاً إنه مؤمن بالمسيح، وقصصه هي صراع الخير ضد الشر.

٤٥ دورية أميركية كانت تصدر بين عامي ١٨٨٧ و١٩٣٩، ونشر فيها ستيفنسن الكثير من مقالاته مثل "حمَلة الفانوس" و"المتسوّلون" و"فصل عن الأحلام"، وسكريبنرز هي كذلك دار النشر الأميركية التي أصدرت أعماله الكاملة.

٤٦ في كتاب أسفار مع حمار في السِفِن ١٨٧٩، يصف ستيفنسن بإسهاب دير "سيدة الثلوج" Notre-Dames des Neiges للرهبان الترابيين، في جبال الآردش جنوب فرنسا، حيث أمضى ليلة من ليالي شبابه والتقى هناك زائرَين آخرين نزلا ضيفين على الدير مثله، أحدهما كاهن أبرشية في الريف المجاور والآخر جندي من المحاربين القدامى التحق بالرهبنة، حسباه بائعاً جوالاً ثم هرطوقياً وحاولا إقناعه باعتناق الكاثوليكية، بعد حوار محموم وغاضب أحياناً دار بينهم بالفرنسية التي كان لسان ستيفنسن فيها طليقاً.

٤٧ المبشّر البلجيكي الأب داميان دو فوستر (١٨٤٠-١٨٨٩)، أو رسول المجذومين؛ كتب ستيفنسن دفاعاً عنه رسالة طويلة مفتوحة إلى "الدكتور هايد الموقر" في هونولولو سنة ١٨٩٠، حيث قال الأخير بنبرة اتهامية إن العدوى قد انتقلت إلى الأب داميان وقضت عليه جرّاء معاشرته نساء مجذومات. إثر ذلك، استقل ستيفنسن قارباً صغيراً بصحبة راهبتين، ورغم مرض السل الذي كان قد بدأ الفتك برئتيه، زار جزيرة مولوكاي حيث مستعمرة المجذومين في أرخبيل هونولولو. دامت زيارته ثمانية أيام خالط خلالها المجذومين واستمع إليهم وحدّثهم مطولاً، كما لاعب أطفالهم وأرسل إليهم الكثير من الهدايا بينها بيانو. قال إن هذه الزيارة قد غيّرت حياته، فكتب كيف رأى المشوّهين يزحمون الأدراج عند اقتراب القارب،

فبكى مع الراهبتين، وقال "إنهم بقايا كائنات إنسانية مثل الذين يحيطون بنا، بين حين وآخر، في رعب كابوس... تكاد لا تميز ملامحها ولكنها لا تزال تتنفس، ولا تزال تفكر ولا تزال تتذكّر... أي مكان مفجع زرناه، وأي جحيم يسكنون"

٤٨ كتب ستيفنسن عن المدينة الصينية التي أحبّ ناسها ومعالمها في سان فرانسيسكو، في "أوراق من دفتر مهاجر بين نيويورك وسان فرانسيسكو" (ضمن كتاب مقالاته عبر السهول). كان قد قطع المحيط الأطلسي، في رحلة الوصول الطويلة إلى كاليفورنيا، إثر استلامه برقية من فاني ليلحق بها ويتزوّجا هناك بعد إنهائها إجراءات طلاقها من زوجها السابق. أقام ستيفنسن في الولايات المتحدة أقل من سنة، بين عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٠

٤٩ Mataapaeia: الكلمة، في لغة ساموا، مركبة من mataa أي كبير العائلة ومانح لقبها للسلالة، وبايبا paeia اسم الزعيم والسلف الأقدم في هذه العائلة، وهي إحدى كبريات العائلات الثلاث الأعرق بين السكان الأصليين لتلك الجزيرة؛ لا يختصُّ الرجال وحدهم باللقب الذي تتوارثه الأجيال، بل تمنحه النساء كذلك لأبنائهن.

٥٠ قد يُترجم لفظ الميلانخوليا، المعرَّب عن اليونانية، إلى السوداوية أو الكآبة السوداوية أو المزاج الأسود، كما وصفه أبقراط أو ابن سينا والرازي، لكن الأدباء الرومانتيكيين في القرن التاسع عشر أسبغوا عليه معاني أخرى أخف وطأة أحياناً، فصار يشير إلى التلذذ بالأسى والحداد على الوجود، أو الانفصال عن الأرض المفقودة والحنين إليها.

٥١ لهذا الحجر الشائع في مقالع الصين، والمسمى بهذا الاسم

لطراوته، استخدامات كثيرة، ليس أغربها مكعباته الصغيرة المثلجة المستخدمة كقطع الجليد في كؤوس الويسكي.

٥٢ Bonnie Prince Charles: هو الأمير تشارلز إدوارد ستيوارت (١٧٢٠-١٧٨٨). عرف بألقاب عدة مثل bonnie (أي الجميل في اللغة الاسكتلندية)، والفارس الشاب، والشاب المطالب بالعرش. حيكت حوله وحول بطولاته في اسكتلندا حكايات وأساطير وأغنيات. ولد في روما، ابناً لعائلة ستيوارت الملكية الكاثوليكية المنفية. إثر رجوعه من المنفى، جمع جيشاً من اليعاقبة والقبائل التي تعتنق الكاثوليكية في شمال اسكتلندا واستولى على إدنبرة سنة ١٧٤٥، ثم اقتحم حدود إنكلترا قاصداً السيطرة على لندن. الهزيمة الساحقة التي مُني بها في معركة كالودن كرّست هيمنة البروتستانت على مقاليد الحكم في جزيرة بريطانيا، وسرعان ما طُورد الأمير الجميل فاستضافه في فرنسا لويس الرابع عشر الذي خذله ولم يؤازر جيشه، ولم تلبث فرنسا أن طردت الأمير الجميل بعد المعاهدة التي وقعتها مع بريطانيا سنة ١٧٤٩، ليتنقل في أرجاء أوروبا ويتوفى منفياً مثلما ولد في روما.

٥٣ في الترجمات البروتستانتية العربية للكتاب المقدس اعتُمدت كلمة المشايخ بديلاً عن القساوسة والكهنة. في عصر الإصلاح البروتستانتي، الذي قاده مارتن لوثر في القرن السادس عشر، نشأت الكنيسة المشيخية (أو المشيخانية) في اسكتلندا، وقد أسسها جون نوكس وتزعمها، ثم انتشرت كنائسها وتعاليمها في أميركا الشمالية ومناطق أخرى متفرقة من العالم. كان ستيفنسن في شبابه يقول ممازحاً الشبانَ أصدقاءه إنه لو كان الكهنة أكثر مرحاً في تنكبهم لكلمة الرب فلربما استوقفه كلامهم.

٥٤ وردت هذه العبارة بالفرنسية في الأصل، وقد تبدو غامضة المعنى. لا تزال اللغة الفرنسية متداولة جنوب المحيط الهادي، على الأقل في بولينيزيا. اعتقد الرحالة الفرنسي بينو بولميه دو غونفيل أنه قد اكتشف أرض الجنوب العظيمة بعد أن أطاحت عاصفة بسفينته عند رأس الرجاء الصالح، مطلع القرن السادس عشر، وكتب في مذكراته كم كدّ هناك للتبشير بالمسيحية. فيما بعد، تزايدتْ تدريجياً القوات البحرية الفرنسية المرسلة إلى أوقيانوسيا، وتقاسمت فرنسا وبريطانيا السيطرة على جزر بحار الجنوب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

٥٥ تعبير درج استخدامه لتوصيف الوعاظ الذين يتوعّدون، ولا يزال قيد الاستخدام في الوقت الراهن؛ إنه مستقى من غضب الله في التوراة، حين يصبّه على الخطاة ناراً وكبريتاً كأداتين من أدوات العقاب الإلهي.

٥٦ "بحار الجنوب" اسم تاريخي قديم للمحيط الهادي. آخر أعمال ستيفنسن وأضخمها، والمنشور بعد وفاته، يحمل عنوان **في بحار الجنوب**، ويضم عدداً من مقالاته ونصوصه عن رحلاته البحرية والحكايات التي سمعها أثناء تجواله بين تلك الجزر الجنوبية.

٥٧ الصلاة الأخيرة في كتاب ستيفنسن **صلوات مكتوبة في فايليما** المطبوع بعد وفاته.

٥٨ الوعيد هنا مقتبس من سفر إشعياء في العهد القديم.

٥٩ الأحجار الملساء التي تأتي بها الفيضانات والسيول.

٦٠ وضعنا اسم البلدة كما كان ستيفنسن يحبّ أن يلفظه، وكان

في مطلع شبابه قد خاض رحلة طويلة في زورق صغير اجتاز به نهر الواز من بلجيكا إلى فرنسا، وانتهى به في بونتواز شمال باريس (كتب عن هذه الرحلة أول كتبه المنشورة **رحلة إلى الداخل**، ١٨٧٨)؛ ثم سافر بالقطار إلى باربيزون، التي كانت آنذاك ملتقى معروفاً للفنانين ولا تزال حتى الآن. وهناك أَسَرَتْه غابة فونتينبلو المترامية بأشجارها المعمّرة وصخورها جنوب شرقي باريس، وقطعها مشياً وعلى ظهره حقيبة خفيفة كالفنانين البوهيميين ليصل إلى بلدة غريه-سور-لُوَان [غريتس] ويلتقي بفاني في فندق شوفيّون. عند أطراف هذه الغابة الفرنسية ثمة بلدة اسمها ساموا أيضاً.

٦١ Stefansson: اسم ستيفنسن كما تنطقه السيدة البلجيكية.

٦٢ توالى وصول التجار والمبشرين الإنكليز والأميركيين إلى مملكة ساموا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وتبعه في النصف الثاني من القرن إياه اتساع المشاريع الألمانية التجارية والصراع على احتكار زراعة المطاط وجوز الهند. خلال الحرب الأهلية الأولى، التي اندلعت في ساموا بين عامي ١٨٨٦-١٨٩٤، تنازعت الإمبراطوريات الثلاث - الولايات المتحدة، بريطانيا، ألمانيا -لبسط نفوذها هناك، فأمدَّ كلٌ طرف من الأطراف الثلاثة حلفاءَه بين القبائل المحلية بالعتاد والأسلحة، وأرسِلت البوارج الحربية إلى ميناء آبيا. ستيفنسن المحبط مما شهده، والمقتنع بعجز الأوروبيين عن تولي شؤون هذه الجزر، انخرط في السياسة المحلية شاجباً السياسات الاستعمارية في عدد من مقالاته، ونشر كتاب **حاشية للتاريخ: ثمانية أعوام من الاضطراب في ساموا**، ١٨٩٢، ما تسبب في استدعاء اثنين من الضباط البريطانيين، فخشي

ستيفنسن لبعض الوقت ترحيله من فايليما.

٦٣ Fetch: تستخدم هذه التسمية الغامضة، التي عرّبناها إلى "قرين"، تعبيراً عن شبح يأتي بحثاً عن الناس ليصطحبهم إلى الموت. هذا الكائن الخيالي، في الثقافتين الاسكتلندية والسلتية الأيرلندية، هو قرينُ الحيّ وصنوه، وله سحنة طبق الأصل، وهو ربما أناه البديلة الموازية، وتجلّيه للعيان نذيرُ موت وشيك، لأن وقوف المرء إزاء ذاته، كالصورة في المرآة، مدعاة للشؤم. كتب ستيفنسن حول هذا الموضوع أنشودة "تيكونيدروغا: أسطورة من المرتفعات الغربية"

٦٤ في الديانات الطوطمية جنوب المحيط الهادي، لكل مخلوق روحان، تُسمّى إحداهما آونغا وتقارَن بالظل في الشمس، وهي تخرج من فم الإنسان عند موته لتشرع في رحلة طويلة إلى أرض الموتى البعيدة، والروح الأخرى تُسمّى آدارو، وتقارَن بالانعكاس في الماء، وهي تلبث لبعض الوقت مع جثمان صاحبها قبل أن تدخل جسد طائر أو حجراً. وفي أساطير أخرى، آدارو كائن يُخلق من الجزء الشرير في روح الإنسان، ويعيش في الشمس، ويهبط إلى الأرض متزحلقاً على قوس قزح.

٦٥ كان السكّر الأسمر يُباع على شكل أكواز.

٦٦ احتفظنا بالترجمة الحرفية لهذه الجملة في معناها العامّي لتتضمن أيضاً الإشارة إلى البضائع الممنوعة أو التي تمرَّر خلسة كالكحول.

٦٧ يستخدم مانغويل مفردة تفيد معنى الاشتياق والشهوة معاً،

فآثرنا ترجمتها إلى "تَوق"، حفاظاً على صيغة المذكّر الضرورية في سياق الرواية، والمفردة في لسان العرب تفيد معاني النزوع والاشتياق والاشتهاء، والتوّاق هو الذي تتوق نفسه إلى كل دناءة.

٦٨ الوزيز في مصطلحه الطبي، وهو صوت أشبه بالصفير الحاد لدى المصدورين.

٦٩ **ديانة طبيب** هو العمل الأول المنشور للطبيب والكاتب الإنكليزي السير توماس براون (١٦٠٥-١٦٨٢)، وإحدى الكلاسيكيات الكبرى في الأدب الإنكليزي. صدر سنة ١٦٤٢، وهو سيرة ذاتية روحية يتأمل فيها براون الكثير من الأفكار والتصورات الدينية والعلمية والفلسفية، من الملائكة إلى الموسيقا، بحميمية وصراحة نادرتين تقومان أساساً على اعترافات شخصية صيغت نثراً. اعتبر أسلوبه مثالاً في الدقة وجمال الابتكار، والمقطع المقتبس هنا يظهر مثلاً استخدامه الخاص للنقطتين الرأسيتين. اعترف ستيفنسن متأخراً (في **ذكريات وبورتريهات**، ١٨٨٧) بما يدين به أسلوبياً لهذا الكتاب الفريد، مستحضراً، بين الجد والهزل، كيف تعلّم الكتابة، وكيف نشر أولى محاولاته الأدبية في مجلة جامعة إدنبرة، متأثراً في مطلع شبابه بكتاب وشعراء عديدين، إنكليز وفرنسيين.

٧٠ تتعيّن السنة الأفلاطونية، أو السنة العظمى، بعودة النجوم والأفلاك إلى مواضعها الأولى التي انطلقت منها قياساً إلى الاعتدالين الربيعي والخريفي. ووفق قدامى الفلكيين كانت مدتها تعادل ٢٤٨٠٠ سنة شمسية. عندما تكتمل هذه الدورة

الفلكية وتنغلق دائرة الزمن، فإن العالم يبدأ من جديد، لتظهر الكائنات نفسها وتعاود الأحداث نفسها تسلسلها مرة أخرى.

٧١ لا تقوى هذه النباتات على النمو الرأسي فتمتدّ سُوقُها زحفاً.

٧٢ "لا"، في العبارة الإنكليزية، تشير إلى نواهي الوصايا العشر التي وردت في سفر الخروج: " [...] لا تقتلْ. لا تزنِ. لا تسرقْ. لا تشهدْ على قريبك شهادة زور. لا تشته بيتَ قريبك. لا تشته امرأة قريبك، ولا عبدَه، ولا أمَتَه، ولا ثورَه، ولا حمارَه، ولا شيئاً مما لقريبك"

٧٣ الاسم الإنكليزي لإقليم بورغوني شرقيّ فرنسا أو الصفة المشتقة منه، وكان ستيفنسن قد كتب "النبيذ شعرٌ في زجاجة"

٧٤ "أعيش هنا في بحار الجنوب، تحت وطأة ظروف بالغة الجدة والقسوة، فيما تلازم مخيلتي السكنى بين التلال الرمادية والبحيرات القديمة الباردة التي جئنا منها"، كتب ستيفنسن في إحدى رسائله من ساموا، حيث باغته الموت إثر نزيف حاد في المخ عام ١٨٩٤، متوفياً عن أربعة وأربعين عاماً. دُفِنَ هناك في جبل فايا القريب من منزله في فايليما، وعلى شاهدة القبر، نُقشَت قصيدته:

تحت السماء الواسعة المرصعة بالنجوم

احفرْ لي قبراً، ودعني أرقدْ.

ملاحظة حول النص

ثمة أسماء معينة (بما فيها اسم السيد بيكر من تونغا)، وتعابير وأوصاف معينة مأخوذة من رسائل روبرت لويس ستيفنسن إلى عائلته وأصدقائه، اختارها سيدني كولفين وحرّرها مع الحواشي والتقديم، وصدرت في مجلدين لدى "دار أبناء تشارلز سكريبنر"، نيويورك، ١٨٩٩

’مثيرةٌ ومقلقة في آن‘

Observer

يستمتع روبرت لويس ستيفنسن بالحياة على جزيرة ساموا المشرقة الألوان إلى حين انقلاب كل شيء إثر الاغتصاب والجريمة وظهور قرينه السيد بيكر.

بهذا الاحتفاء المرِح بحياة مؤلف ’جزيرة الكنز‘ و’دكتور جيكل ومستر هايد‘ وعمله، يحوك مانغويل حكاية باهرة يمتزج فيها الحلم بالوعي، وتتجسد فيها الرغبات المكبوتة، إذ إن القصص هي الواقع، والرُّواة يمتزجون بشخصيات حكاياتهم.

ألبرتو مانغويل مؤلِّف موسوعيّ مشهود له عالمياً ومترجم وكاتب مقالات وروائي. حازت كتبه جوائز عدة وكانت الأكثر مبيعاً. يعيش في الأرجنتين حيث يشغل منصب مدير المكتبة الوطنية. صدر له عن دار الساقي: ’تاريخ القراءة‘، ’المكتبة في الليل‘، ’فنّ القراءة‘، ’الفضول‘.